المنهاج القويم في التزكية

عبد الغني العمري

طبعة:

الناشر:

للتواصل: abdelrhaniomari@gmail.com

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، الذي يستنقذ من يشاء من الظلمات، قبل ظهور الأسباب والعلاّت؛ الواقي من اعتنى به الوقوعَ في الآفات، الغافر ذنب المحبوب ماضيا وفيما هو آت؛ والصلاة والسلام على خير من بُعث للجِنة والناس، فدل على أقوم صراط بالحكمة والقسطاس؛ وعلى آله وصحبه ما قام بناء على أساس، واستهدى مستهد بنبراس؛ من يوم خلق الله الخلق إلى يوم افتراق المآتم عن الأعراس؛ بل أبد الآباد، ومع كل الأنفاس.

لقد عرف الناس على مر الزمان طريق التربية القلبية، على أيدي الأنبياء عليهم السلام، أو على أيدي ورثتهم، الذين قاموا مقام النواب فيهم .

ولقد توفر لأمتنا من أئمة الطريق، الـذين بيّنـوا أحكامهـا، وأرسـوا معالمها، ما لم يتوفر لأمة غيرها. فكانـت بحـق، خيـر أمـة أخرجـت للناس، تأمر بالمعروف المبين، الذي ما عـرف عـارف سـواه، بلـسان أرواح أئمتها الوارثين؛ وتنهى عن المنكر، بلـسان أحـوال المريـدين، وتؤمن بالله، من مقام عامتها المصدقين.

ولقد تكلم أئمتنا في أصول التربية الإيمانية بما لا مزيد عليه. غير أننا نرى أنه من الضروري أن نُعيد صياغة ما قيل، بما يناسب عصرنا والمنتسب إليه. مـن جهـة، تـسهيلا لبلـوغ المـرام فـي هـذا الفـن. فالمتلقي يفهم أكثر عمن يعاصره، كما لا يخفى، ويُظن. ومن جهـة أخرى، حتى نعزل ما استحدثه المتطفلون على هذا المجال، عما هو من الأصول الثابتة، أو من الطرائق المحمودة في المآل.

وقد دفعنا إلى هذا، ما نراه من تخبط لـدى كثيـر ممـن ينـسبون أنفسهم إلى هذه الطريق، الـشيء الـذي أدى بـدوره إلـى أن جعـل المعترضـين يتخـذون أحـوالهم (أي أحـوال المنتـسبين) حجـة بالتلفيق؛ يبنون عليها عقيدتهم، ويستدلّون بها على بطلان من يقول بضرورة التربية للقلب، كما هي ضرورة فيما يرجع إلى البدن والفكر، إيجابا لإيجاب وسلبا لسلب. وما يعلمون أنهم يهدمون طريق النبـوة

من أسّه، فلا يبقى لهم بعد ذلك ما يستندون في تـديّنهم إليـه. إذ الشيء لا يُحال على نفسه.

وهم بهذا، يكوّنون تيارا إلحاديا فرعيا داخل الأمة، وإن زعموا أنهـم أشد الناس تمسكا بالسنة. ونحن ـ والله يعلم ـ لا نقول هـذا الكـلام بغية التنقيص من أحد، وإنما نريد أن نبين في هذا الـشأن، مـا قـد يخفى عن كثيرين بلا عدد؛ لعل طالب الحق أن يصحح اعتقاده، إن لم يكن ممن ينهض إلى سلوك الطريق. فإن منكر وجـود الـشيء، لا يستوي هو ومن يقر، ولا يأخذ به في التحقيق.

ولعل الأقوال في هذه الطريق، ما اختلفت، كما هـي اليـوم. ولعـل أسباب الاختلاف الداخلية، قد انضاف إليها أسباب الخلاف الخارجـة عن القوم. فأدت إلى كل هذا البعد عن وضوح الرؤية، المؤدي إلى ما يشبه النـوم. أضـف إلـى أن وسـائل الاتـصال الحديثـة، يـستعملها المتخصصون كما يستعملها العامة الذين لا يميزون. فأصبحت جـل المقولات، تنتقل بترجيح الأهواء؛ أو بالتعصب إلى أهل البلد الواحد، أو باختيار أكثر الناس ظهورا على شاشـات الفـضاء. وكـأن الأحكـام أصبحت تخضع لمبدإ الأخذ برأي الأغلبية، التي هي تحت الهيمنـة الإعلامية/الإعلانية.

فاختلطت المعايير، واختلطت بسببها نتائج التفكير؛ فكانت سببا رئيسا من أسباب الفرقة، بين من سماهم الشرع إخوانا. واستبيحت أعراض، كان الناس في أزمنة أصحابها يفتدونها، شيبا وشبانا. فزالت شروط التعلم، واكتفي بالأخذ عن المظلمة قلوبهم، أو من تلازمه العلة؛ فأدى ذلك إلى فشوّ الأسقام القلبية المتنوعة، فزاد الطين بِلّة. وبلغ الناس من ضعف الإيمان، أن صار المسلم يسلم أخاه إلى عدوه؛ بل صارت الأمة يقتطع بعضها بعضا غنائم للكافرين والظالمين، كعدوه.

يقول الفقهاء: ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب. وكلنا نعلم، أن وحدة الأمة واتحادها واجب. لكن، لبلوغ ذلك، لا بد من أسباب تتّخذ، تؤدي إلى تغيير ما بالقلوب حتى يغير الله بها ما بالقوالب. وكتابنا هذا ـ إن شاء الله ـ سيتناول تلك الأسباب؛ مقربا لإدراكها، أو إعادة النظر إليها، حتى يتبين القارئ طريق الحق بين يديه، إن كان من أولي الألباب.

وننبهه، إلى ضرورة التريث في الحكم على ما لم يألف سماعه؛ والإصغاء بسمع القلب إلى ما نلقي إليه، إذا جاوز باعه. فإننا سنتكلم في علوم عزّت حتى أنكرها، من لم يكن من أهلها، أو ممن عاشر أهلها.

واللهَ نسأل، أن يجعل هذا الكتاب مسددا مقبولا، بجاه مـن خلقـه الله على الرحمة مجبولا. فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليما، وكرّم تكريما ومجّد تمجيدا وعظم تعظيما.

وبالله التوفيق.

الفصل الأول
التربية

التربية من ربَّ يرُبُّ، واسم الفاعل منه "الرّبُّ " ولا يطلق على غير الله؛ويأتي أيضا من ربّى يربّي. وأصل ربّى من المجرد ربا الذي هو زكا ونما. فيكون معنى ربّى الشيء، أي جعله ينمو؛ وزكّى الشيء، أي جعله ينمو ويطهر ويصلح. فالتقى معنى التربية بمعنى التزكية. وجعْل الشيء ينمو، يُفهم منه إصلاح الشيء وتهييء الأسباب لنموه. فإن كان مما ينبت كالنبات أو الحيوان عموما (من حيث ما هو نبات)، فهو تعاهده بالإطعام والسّقي والحفظ من الأضرار، حتى يكبر من حيث الحجم؛ وإن كان مما يُكثّر كالمال، فنموه كثرته؛ وإن كان مما يطهرحسا كالأبدان، فزكاتها طهارتها وطيبها؛ أو مما يطهر ويصلح معنى، كالعلم والأخلاق، فزكاتهما صلاحهما ونماؤهما.

ولا يخفى أن الإنسان يولد ومعه خميرة، إن حافظ عليها مربيه ونماها، كان هذا المربّى صالحا خيّرا؛ وإن أهملها حتى طمست

تحت الغرائز، أنتجت إنسانا حيوانا، لا يختلف عن الحيوانات الأخرى إلا من حيث الصورة، ومن حيث الفكر الخادم لحيوانيته. هذه الخميرة هي ما سماه الشرع فطرة. فقال الله تعالى:﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾[1]. وحال الفطرة هاته، هي ما سماه الله أحسن تقويم. فقال جل من قائل:﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ ﴾[2]. والردّ أسفل سافلين، هو التقهقر عن مرتبة الآدمية إلى مرتبة الحيوانية أو الشيطنة. وهو يكون لمن لم يُسَرْ به في مرحلة تربيته في السبيل الموافق للفطرة المركوزة فيه. وقد جعل الله هذا الصنف من الناس هو القاعدة، بسبب كثرتهم العددية في مقابل من سيعود إلى مرتبة "أحسن تقويم" الأصلية، والذين هم المستثنَون في الآية الكريمة. فدل هذا على أن الإيمان وعمل الصالحات هو نبات بذرة الفطرة نفسها. فظهر بالفعل، ما كان فيها بالقوة. وهذا هو معنى عدم نقص الأجر لهذا الصنف. وذلك أن أجرهم جاء مناسبا لصورتهم الأصلية. فالصورة الأصلية الفطرية، هي مقياس الكمال والنقص فيما بعد. وقد جاء

[1] . الروم: 30.
[2] . التين: 4 - 6.

في الحديث الشريف: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾»[3]. فالحديث ذكر الوالدين، ليدل على أن التربية هي العامل المحافظ على فطرة الإنسان، كما قد تكون هي العامل الهادم لها. وبذكره صلى الله عليه وآله وسلم للتهويد والتنصير والتمجيس، دل على أن الفطرة هي الإسلام. ثم بضربه لمثل البهيمة التي تلد بهيمة كاملة الصورة، فيقع لها الجَدْع (القطع)، على يد صاحبها، أشار إلى البقاء على أصل الكمال، أو السير بالمربّى في اتجاه النقص. فكان هذا الحديث تفسيرا للآية التي ذكرت في آخره. وعلى هذا، فالتربية أو التزكية، لا تطلق حقيقة إلا إن كانت في اتجاه خط الفطرة، وإلا كانت مجازية. وعلى الحقيقة، فإن التربية بما يخالف الفطرة، تكون إفسادا وتشويها، لا تربية بالمعنى الحقيقي.

من هذا المنطلق، يتسنى لنا أن نميز بين نوعين من التربية أساسين:

---

[3] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

1. التربية الموافقة للفطرة.

2. التربية المخالفة لها.

1. التربية الموافقة للفطرة: (التزكية):

بما أن الفطرة هي الإسلام، كما أوضحنا ذلك سابقا؛ فإن التربية الموافقة لها هي التربية على الإسلام من غير ريب.

والتربية على الإسلام تشمل معنيين، لا بد من تمييزهما. وهما: الإسلام بمعنى المرتبة، والإسلام بمعنى الدين، على ما بيّناه في كتاب "مراتب العقل والدين". ولكي نميز بين المعنيين، سنسمي التربية على الإسلام/المرتبة: تربية عامة (مشتركة)؛ وسنسمي التربية على الإسلام/الدين: تربية خاصة.

ا ـ التربية العامة:

وهي التربية على الأركان الخمسة المعروفة، والتي هي:

ـ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

ـ الصلاة.

ـ الزكاة.

ـ الصوم.

ـ الحج، لمن استطاع.

فإن كانت هذه الأركان هي أصول الإسلام، فإن الركن الأول الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، هو أصلها كلها. فمن شهد بهذه الشهادة، لا عن إكراه، فهو مسلم. ومن زاد عليها، صلاة الخمس، وزكاة العشر لمن توفر لديه النصاب، وصام شهر رمضان، وحج حجة العمر، فذاك مسلم حسن الإسلام. فإن خالف مع القدرة، فهو مسلم عاص، بقدر مخالفته.

يتضح من هذا التعريف، أن التربية العامة على الإسلام مشتركة بين جميع أفراد الأمة ولله الحمد، على اختلاف مذاهبهم العقدية والفقهية. وهذه نعمة خص الله بها هذه الأمة، تشريفا لها وتكريما. وكل الاختلافات التي أدت إلى الفُرقة فيها، فإنما هي بسبب اعتبار الفروع أصولا وإنزالها منزلتها. فالغلط واقع من قِبل الناظرين لا من حيث الحقيقة.

والتربية العامة ـ على ما بيّنّا ـ قد تكفّل بها الفقهاء وعلماء الأمة. فهم حراس حدودها، والمبينون لأحكامها، والمصححون لمسارها، إن هم نصحوا وبيّنوا.

ونحن لن نزاحم فقهاءنا في هذه العملية، ولكن في المقابل نعلن أن هذه العملية تعاني في زماننا من قصور مخل، احتار معه عامة المسلمين، فيما هو مما يشبه المسلمات عند السابقين.

وسبب ذلك هو وقوع هؤلاء الفقهاء ـ والمؤسسات الفقهية الرسمية على الخصوص ـ تحت تأثير السياسات الموجهة. فأصبح الناس يختلفون في حكم موالاة الكافر على المسلم، رغم أن الحكم فيها صريح لا يقبل التأويل. وأصبحوا يختلفون في مسألة ستر العورة، فيما يتعلق بالرجال أو فيما يتعلق بالنساء؛ وفي مسألة الربا المحرم،... وغيرها من المسائل المعلومة بالضرورة.

هذه الحالة العامة أدت إلى ضعف شبه عام، لم يف بالحد الأدنى الإيماني، الذي يبعث المسلم إلى طلب الانخراط في سلك التربية الخاصة، إلا فيما ندر.

ب ـ التربية الخاصة:(التزكية بالمعنى الحقيقي):

هذه التربية هي المعنية بتحقيق الإسلام من حيث ما هو دين. فبها يتعرف المسلم على مرتبتي الإيمان والإحسان. ومن غير تحقيق تام للمرتبة الأولى من الدين، التي هي مرتبة الإسلام، لن يتمكن المرء من التأهل للسير قُدُما. من هنا ظهر الضعف عند من يدعي التربية الخاصة في زماننا، حتى صاروا لا يتميزون عن العامة إلا في مقولات يتداولونها فيما بينهم، أو "طقوس" يمارسونها بين الفينة والأخرى، يزعمون أنها من دلائل الخصوصية. وبما أننا قد تكلمنا على مراتب الدين، في كتبنا

السابقة، وعما يحصله السالك في كل مرتبة؛ فإنا لن نعيد ما ذُكـر هناك.[4] ولكن لن يمنعنا هذا من تبين بعض الفروق بـين التربيـة العامة وتلك الخاصة، بقدر ما يتيسر.

ج ـ الفروق المميزة للتربيتين:

من أهم الفروق البيّنة، تلك المتعلقة بالوسائل التربوية:

ففيما يعود إلى التربية العامـة، الوسـائل تكـون عـادة المحـيط الأسرَوي، والتلقين، والاجتهاد الشخصي. فبالنسبة إلـى المحـيط الأسروي، لا يخفى ما له من أثر على المربّى، من حيث كونه أول المحددات لمعالم انتماءاته وتوجهاته. ومن هنا يتضح دين أغلـب الناس، ومذهبهم، وانتمـاؤهم المرجعـي فيمـا يخـص الـدين، أو انتمـاؤهم الـسياسي والطبقـي مـن حيـث المكانـة الاجتماعيـة والسياسية. والشاذ عن هذه القاعـدة قليـل! لـذلك ذكـر الحـديث النبوي باللفظ، تربية الوالدين. والوالدان يختـزلان فـي نفـسيهما إرث أجيال وسلاسل عائلية متنوعة من جهة التركيبة التفصيلية، التي تضم إلى جانب ما تضم، المميزات الشخصية، الخِلقية منهـا والخُلقية.

---

[4] . الكتب التي تتضمن الكلام على مراتب الدين هي: "مراتب العقل والدين" و"كشف الحجب الإدراكية" و"الكمال والتكميل". وقد صدرت كلها عن مؤسسة الانتشار العربي، في كتاب واحد بعنوان: "مراتب العقل والدين".

أما التلقين، فيعود إلى ما تلقاه المربّى على يد أشياخه وأساتذته. فهؤلاء قد يرسخون لديه ما أسسته الأسرة، أو قد يزعزعونه. فإن ترسخ المؤسَّس، فقد تختلف درجة الترسيخ من شخص إلى آخر ومن ملقِّن إلى غيره؛ وأما إن تزعزع، فقد تختلف درجة الزعزعة أيضا من شخص إلى آخر ومن ملقِّن إلى غيره.

لكن التلقين يختلف بين التربيتين: ففيما يخص التربية العامة، التلقين أساس فيها، وهو أهم وسيلة لتَلقّيها. فتوجيه المربي للمربى ضمن هذا النوع من التربية، يعتمد غالبا على التلقين الشفوي، أو الكتابي؛ كما أن أسئلة المربى تكون في الأغلب شفوية أو كتابية. ومن شدة ما اعتُمد التلقين في هذه التربية، أصبح جل الناس لا يتصورون سبيلا غيره للتعلم أو التعليم.

أما فيما يرجع إلى التربية الخاصة، فإن التلقين قد يكون شفويا أو كتابيا؛ لكنه ليس أساس التربية وحده، بل هو يُعتمد بقدر الضرورة. وذلك أن الكلام في العلوم الذوقية لا ينفع، بل يُكتفى بالإشارة إليها به فحسب. فإن جاوز الكلام حد الإشارة صار حجابا، وصار تلبيسا على الناس؛ بحيث يظنون أنهم يتربون تربية خاصة، وهم لا يتعدون طور العامة. الشيء الذي يؤدي إلى حرمانهم من الترقي إلى التربية الخاصة، بسبب كونهم يظنون أنهم عليها.

فإذا لم تكن التربية الخاصة تعتمد التلقين وحده، فما الوسائل الأخرى فيها؟

هناك وسائل غيبية تنضاف إلى الوسيلة الشهادية السابق ذكرها، وهي: المدد، والنظرة، والحال. فالمربي ضمن التربية الخاصة، لا بد أن يكون صاحب إمداد، وإلا لن يتعدى بتلاميذه طور التبرك. وهذا الإمداد يسري من روحه إلى قلوب التلاميذ؛ عند الحاجة، وعلى قدرها. وذلك أن المريد قد تعرِض له أهوال في طريقه، فإن بقي بلا إرشاد غيبي، هلك. بخلاف العامي الذي أقصى ما يقع فيه الجهل والمخالفة للأحكام الشرعية الظاهرة. وهذا المدد قد يكون على صورة جواب عن سؤال يسأله المريد في نفسه، أو يكون تعليما غيبيا (كشفا) مسبقا، يخص أمرا، المريد مقبل عليه وهو لا يشعر؛ أو يكون صورة (مشاهدة) يراها المريد تُجمل التعليم في أمر ما؛ وهكذا...

أما النظرة، ففي الحقيقة هي الإرادة، ولكن أهل الله يتأدبون فلا يستعملون الألفاظ المشتركة بينهم وبين الألوهية. ونحن إنما نذكر حقيقتها من أجل بلوغ الفهم الصحيح فيها. فإن هذه اللفظة شائعة الاستعمال في الأوساط الصوفية، ولكن من غير إدراك لمعناها. والإرادة هي إرادة الحق. وهي روح كلمة "كن" من الحق.

وإذا كان الشيخ ربانيا، فإنه يرقي تلميذه بالنظرة إن أراد، أو يعلمه أو يعطيه حالا مخصوصا، أو يعاقبه، إلى غير ذلك..

أما "الحال"، فيسري من باطن الشيخ ليكسو المريد. والحال يُقصد به الجذب. وهو إما عام أو خاص. فالعام يعطي اليقظة ورفع الهمة والمراقبة، التي تعطي بدورها الدوام على الطاعة والذكر؛ أما الخاص فيتعلق بجوانب جزئية من سير المريد، فيكون عونا له في اجتياز المراحل من غير شعور بثقلها على نفسه. ولولا الحال ما استطاع أحد أن يتقدم خطوة واحدة في الطريق. وإذا شئت أن نقرب إليك الحال، فاعلم أنه يشبه من حيث الأثر، المخدر الذي يستعمله الطبيب قصد إجراء العمليات الجراحية. والنفس إن هي بقيت صاحية تحرُن، ولا تُقبل على الطريق؛ لأنها ترى فيها الإقبال على حتفها. والحال يجذبها إلى أمام، ويجد له القلب لذة، حتى وإن كان يمزّق تمزيقا.

أما إن استغربتَ ما نقول، وقلت في نفسك: لو كان الأمر كما تقول، لكنا نعلم هذا جيلا عن جيل، بواسطة العلماء الذين لم يدخروا وسعا في تبيين أحكام الدين، وما ينفع المسلمين في الدنيا والآخرة؛ ولصار الناس يلتمسون هذه الوسائل التعليمية عند أهلها، إن هي لم تتوفر عند جميع من له علم؟

قلنا: أما علم هذه الأمور، فهو من اختصاص علماء التربية القلبية (فقهاء السلوك) دون غيرهم؛ لأنه يدخل ضمن التربية الخاصة كما قلنا. والعلماء الذين عنيتهم أنت، هم علماء التربية العامة. وهم مختصون بالأحكام الظاهرة فحسب. ولا يحيطون من أحوال القلوب إلا بقليل القليل، على سبيل الإجمال والظاهر فحسب. أما إن كنت تريد تأصيلا لما نقول، من الدين، حتى تطمئن إلى كلامنا، ولا تنجرف مع من يقول بأن هذه الأمور مما دخل على الدين من الملل الأخرى؛ فإننا نقول:

لو أن الناس نظروا في تربية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لصحابته الكرام رضي الله عن جميعهم، لوجدوا ما ذكرناه مجسدا بجميع شعبه. فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الأمر لأصحابه كلاما. ومنه كل الأحاديث التي وصلتنا عبر الأجيال، والمدونة في كتب السنة. فهذا ضرب من التعليم. ولن نتوقف عنده، لأنه معلوم لدى جميع المسلمين. ومنه ما اصطُلح عليه عند القوم بـ"النظرة". ومثله ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في إسلامه. وقصته مشهورة. فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين

الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب.»[5] فكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب. فهذا من نظرته صلى الله عليه وآله وسلم. ومثله أيضا ما وقع للشاب الذي جاء مستأذنا في الزنى. فقد روي في الحديث: « أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه، مه. فقال (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم): ادنه! فدنا منه قريبا. قال: (الراوي) فجلس. قال(رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم): أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال (الراوي): فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء »[6]. ففي قصة هذا الشاب: نجد التلقين المعهود، وهو

[5] . أخرجه أحمد في مسنده، وهو صحيح.
[6] . رواه أحمد في مسنده عن إبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

الإقناع بالحجة. وفيه الترقية بالنظرة. وهي باطن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم. وفيه الإمداد، بما صرف الله به الشاب بعد ذلك عن الالتفات إلى ما كان يرغب فيه قبلا.

وفي الحديث أيضا: عن حنظلة الأسيدي وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم « أنه مر بأبي بكر وهو يبكي فقال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا أبا بكر! نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنه رأي عين، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيرا. قال: فوالله إنا لكذلك. انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانطلقنا. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ما لك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله. نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنه رأي عين. فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تدومون على **الحال** الذي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة. ثلاث مرات»[7]. انظر كيف أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ الحال في معرض جوابه. وانظر ما قلناه عن تلبس الصاحب بحال المصحوب أثناء

[7] . أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد.

مجالسته، وهو ما أنتج الفرق عند الصحابة بين ما يكونون عليه في حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما يكونون عليه في شؤونهم المعاشية. ثم انظر كيف أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخبر الصحابيين (وغيرهما من ورائهما)، أنهما لو داما على نفس الحال لصافحتهما الملائكة كفاحا، أي لصار لهما الغيب شهادة. وفي قوله صلى الله عليه وآله وسلم لهما: ولكن ساعة وساعة، ما يفيد أن الحال لا يدوم. ولذلك سمّي حالا.ولو تمعنت فيما كان يثمره الحال عند هذين السيدين لوجدته المراقبة والحضور. فتنبه ـ يرحمك الله ـ إلى ما في هذه الكلمات من علوم!

د ـ غزوة خيبر وما فيها من دلالات:[8]

[قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الأسلمي أن أباه حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، وكان اسم الأكوع سنانا: انزل يا بن الأكوع فحد لنا من هناتك، قال: فنزل يرتجز برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

[8] . من سيرة ابن هشام.

إنا إذا قوم بغوا علينـا وإن أرادوا فتنة أبينـا
فأنزلن سكينة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم: يرحمـك اللـه! فقـال عمـر بـن الخطاب: وجبت والله يا رسول الله! لو أمتعتنا به. فقتل يوم خيبـر شـهيدا. وكان قتله فيما بلغني، أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل فكلمه (جرحه) كلما شديدا، فمات منه فكان المسلمون قد شكوا فيه وقالوا: إنمـا قتلـه سـلاحه! حتى سأل ابن أخيه سلمة بن عمرو بن الأكوع رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم عن ذلك، وأخبره بقول الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: إنه لشهيد! وصلى عليه فصلى عليه المسلمون.]

هذا من نظرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقـد فطـن عمر رضي الله عنه إليها، لذلك قال: لو أمتعتنا به. أي لو تركته لنا نتمتع به. فمات شهيدا كما نظر إليه رسول الله صلى اللـه عليـه وآله وسلم.

[قال ابن إسحاق : ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول من يبـارز؟ فزعم هشام بن عروة أن الزبير بن العوام خرج إلى ياسر. فقالت أمـه صـفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله! قال: «بل ابنـك يقتلـه إن شـاء الله». فخرج الزبير فالتقيا، فقتله الزبير.

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عـروة : أن الزبيـر كـان إذا قيـل لـه والله إن كان سيفك يومئذ لصارما عضبا، قال والله ما كـان صـارما، ولكنـي أكرهته.]

قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بل ابنـك يقتلـه إن شاء الله»، من النظرة، فتحققت.

[قال ابن إسحاق : وحدثني بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن أبيه سفيان عن سلمة بن عمرو بن الأكوع، قال بعـث رسـول اللـه - صـلى اللـه عليه وسلم - أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - برايته وكانـت بيـضاء فيمـا قال ابن هشام، إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجـع ولـم يـك فـتح. وقـد جهد. ثم بعث الغد عمر بن الخطاب، فقاتل ثم رجع ولم يك فتح. وقد جهد. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لأعطين الراية غدا رجـلا يحـب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار».]

قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا، من النظرة أيضا.

[قال: يقول سلمة: فدعا رسول اللـه - صـلى اللـه عليـه وسـلم - عليـا - رضوان الله عليه - وهو أرمد، فتفل في عينه، ثـم قـال: «خـذ هـذه الرايـة فامض بها حتى يفتح الله عليك» قال: يقول سلمة: فخـرج واللـه بهـا يـأنح يهرول هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته فـي رضـم مـن حجـارة تحت الحصن فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال من أنت؟ قـال: أنـا علي بن أبي طالب. قال: يقول اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى! أو كما قال. قال فما رجع حتى فتح الله على يديه.]

تفل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، هو من المدد الـشفائي. فقام، سيدنا علي رضي الله عنه من مكانه وكأن لم يكن به شيء. ثم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «خذ هـذه الرايـة فـامض بهـا حتى يفتح الله عليك»، هو من النظرة. وأما قول اليهودي: "علوتم وما أنزل على موسى"، يقسم على غلبة المسلمين، فهو من علـم المناسبة. وهذا يدل على أن اليهود كانوا على علـوم ورثوهـا مـن نبواتهم. وسنعرض لهذا فيما يأتي من الكتاب، في محله.

[قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن الحسن عن بعض أهلـه عـن أبـي رافع مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال خرجنا مع علي بن أبـي طالب - رضي الله تعالى عنه - حين بعثـه رسـول اللـه - صـلى اللـه عليـه وسلم - برايته فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم. فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده. فتنـاول علـي - عليـه الـسلام - بابـا كـان عنـد الحصن، فترس به عن نفسه. فلم يزل في يده وهو يقاتـل حتـى فـتح اللـه عليه. ثم ألقاه من يده حين فرغ. فلقد رأيتنـي فـي نفـر سـبعة معـي، أنـا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.]

القوة التي رفع بها سيدنا علي عليه السلام الباب، هي من مـدد القوة الذي أمده به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

[قال ابن إسحاق : وحدثني بريدة بن سفيان الأسلمي، عن بعض رجـال بني سلمة عن أبي اليسر كعب بن عمرو، قال: والله إنـا لمـع رسـول اللـه -

صلى الله عليه وسلم - بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟» قال أبو اليسر فقلت: أنا يا رسول الله. قال: «فافعل». قال فخرجت أشتد مثل الظليم (ذكر النعام، أو المفَزَّع) فلما نظر إلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم – موليا، قال: « اللهم أمتعنا به». قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولاها الحصن فأخذت شاتين من أخراها، فاحتضنتهما تحت يدي ثم أقبلت بهما أشتد، كأنه ليس معي شيء، حتى ألقيتهما عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذبحوهما فأكلوهما. فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم – هلاكا (موتا). فكان إذا حدث هذا الحديث بكى، ثم قال: أمتعوا بي، لعمري، حتى كنت من آخرهم هلْكا.]

قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « اللهم أمتعنا به»، من النظرة. وقد تحققت في طول عمر هذا الصحابي الجليل، حتى كان من آخر الصحابة موتا. وقول الصحابي: " ثم أقبلت بهما أشتد (أسرع) كأنه ليس معي شيء (لخفة الشاتين عليه)" هو من مدد القوة التي أمده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها.

[قال ابن إسحاق : ولما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القموص، حصن بني أبي الحقيق، أتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها، فمر بهما بلال وهو الذي جاء بهما على قتلى من قتلى يهود. فلما رأتهم التي مع صفية صاحت. وصكت

وجهها وحثت التراب على رأسها. فلما رآها رسول اللـه - صـلى اللـه عليـه وسلم – قال: « أعزبوا عني هذه الشيطانة». وأمـر بـصفية فحيـزت خلفـه، وألقى عليها رداءه. فعرف المسلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اصطفاها لنفسه.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال فيمـا بلغنـي، حـين رأى بتلك اليهودية ما رأى: « أنزعت منك الرحمة يا بلال، حـين تمـر بـامرأتين على قتلى رجالهما؟» وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عـروس بكنانـة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمرا وقع في حجرها. فعرضـت رؤياهـا علـى زوجها. فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا. فلطم وجهها لطمـة خضر عينها منها. فأتي بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبها أثر منه فسألها ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر.]

فأمْر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصفية، وإلقاؤه عليهـا رداءه، هو من النظرة. ورؤية سيدتنا صفية رضي الله عنها الرؤيـا، وهي مازالت عند زوجها الأول، هو من المـدد الكـشفي لهـا مـن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن ما سقناه من نماذج من السنة والسيرة، إنما هو قطـرة من بحر. ولو رمنا استقصاء إمداده صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم لصحابته رضي الله عنهم، أو لمن بعدهم من المؤمنين، أو لـسائر

الخلق أجمعين، لعجزنا عن ذلك؛ ولكننا أردنا أن ندلك على الطريق إن كنت من أهل ذلك.

أما إن قلت: إن هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن إنما كلامنا في تربية الشيوخ؟

فاعلم أن ما ذكرناه من المدد ـ على سبيل الدلالة، لا الحصر ـ هو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة، لأنه الواسطة العظمى بين الله والخلق. وهو ـ أي الإمداد ـ لورثته من أمته بالوراثة. ولتعلم أن كل أحواله وعلومه ومدده، هو ميراث للعلماء بالله من أمته على قدر طاقتهم واستعدادهم، وعلى قدر حظهم منه صلى الله عليه وآله وسلم. وتفاضلهم فيما بينهم رضي الله عنهم، إنما هو راجع إلى تفاوتهم في حظوظهم تلك. ولكنهم على العموم، وارثون لأنواع تلك الأصول كلها، إلا ما كان من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم. وحتى تلك، فلها وجه لديهم في التعريف. ونقصد بالوارثين هنا كمّلهم. أما من عداهم فإنما يحصلون على جزء من الميراث. وأما علماء الشرع، فلم يحصلوا من الميراث إلا على ألفاظ القرآن، وألفاظ الحديث، يبلغونها ويبلغون الأحكام المندرجة فيها كما هي. وأما أهل الاجتهاد، فلهم منه صلى الله عليه وآله وسلم مدد خاص، يوصلهم إلى ما

بطن عن غيرهم من أدلة الأحكام. واختص ورثة باطنه صلى الله عليه وآله وسلم، بميراث الحال والمدد، والعلم الباطن، كما بيّنّا.

أما إن كنت ممن لا يعلم شيئا عن قدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو كنت ممن يتأثر بمن يتكلم في الدين بفكره، كبعض من سمعناهم يفسرون القرآن بعقول كليلة، وقلوب مطموسة، حتى صاروا ينكرون صريحه، من غير أن يعترض عليهم أحد أو ينتقد طريقتهم منتقد[9]؛ فإننا نذكر لك نبذة عن الخلافة وما يتعلق بها، من أجل أن نسهل عليك قبول ما أسلفنا من كلام.

ه ـ الخلافة والوراثة:

أولا: لا بد من الرد على المسكين الذي أنكر الخلافة بزعم أن المستخلِف لا يغيب. فنقول: نعم، المستخلف سبحانه لا يغيب، ولكن له شأنان من شؤونه تعالى هما: الظهور والبطون، والخلافة متعلقة بهما. ثم إن صاحبنا خلط بين الخلافة والنيابة. فالخليفة قد يوجد مع مستخلِفه، وهو متخلف عنه في المرتبة؛ أما النائب،

[9] . قصدنا هنا، "دكتورا" أنكر على إحدى الشاشات الفضائية كون آدم عليه السلام خليفة لله، رغم ذيوع ذلك في الأمة منذ كانت، وامتلاء التفاسير به. وهو لم ينكر خلافة آدم عليه السلام فحسب، وإنما أنكر مطلق الخلافة رغم ورود اللفظ صريحا في الكتاب العزيز. وزعم أن الخليفة يكون مع غياب المستخلِف، والله لا يغيب. وذكر أن خلافة آدم عليه السلام، كانت لمخلوقات وجدت قبله على الأرض.

فهو من لا يوجد إلا عند غياب منيبه، فيقوم مقامه؛ وإلا ستكون اللفظتان بمعنى واحد!

ثانيا: إن معنى الخلافة المقصود في الشرع، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[10]، يطلق على من كساه الله حلة الأسماء الإلهية، يتصرف بها في المملكة تبعا لمشيئته سبحانه. وهذا موافق لأصل كلمة "خلف" في اللغة. والعاقل لا بد أنه يميز بين المرتبتين. وقول الله بعد ذلك: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، يفيد أن الملائكة ما كانت تعهد التصرف بالأسماء في مظهر بشري. فلما أرادت الاستفسار عن هذا الأمر، ذكرت ما يمكن أن يكون فيه ذم فيما يتعلق بالمخلوق، وهو الإفساد والقتل. فهي لم تخرج عن مقتضى حكم العموم الذي نزلت به الشرائع فيما بعد. وما كانت تعلم مرتبة الخلافة التي تعطي التصرف بالأسماء الإلهية، من منطلق المرتبة الوجودية، التي هي فوق مرتبة الأحكام. فالخليفة يتصرف بأسماء الجمال والجلال على السواء، من غير تمييز حكمي يعود عليه. بل هو تصرف الملك في

[10] . البقرة: 30.

مملكته، كما ذكر الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [11]. وفي قول الملائكة من نفس الآية السابقة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، حكم بالظن من قِبَلهم. وذلك أنهم لما سمعوا بمنصب الخلافة الإلهية، ظنوا أنه منصب تنفيذي، فرأوا أنفسهم أحق به، بسبب علمهم بالله الذي يعطيهم التعظيم والتنزيه للحق، بالإضافة إلى كونهم مجبولين على الطاعة بخلاف المكلفين من الإنس والجن. وقد ذكر الله عن طائفة منهم ذلك في قوله سبحانه: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [12]. فهم عليهم السلام ما تعدوا علمهم. لذلك رد الله عليهم ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، ليذكرهم أن علمه سبحانه لا ينحصر فيما أطلعهم عليه. وقال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [13]، الأسماء هنا، هي الأسماء الإلهية. وتعليمها لآدم، ذاتي، يجده من نفسه ضرورة. أما عرضها على الملائكة، فهو عرض لتجلياتها. فكانت لهم مشاهدة في آدم. وبعد العرض سألهم عن الأسماء التي

---

[11] . الأنبياء: 23.
[12] . التحريم: 6.
[13] . البقرة: 31.

تعطي تلك التجليات. ولم تكن إلا الأسماء التي تعطي التكبر والجحود والمنازعة للحق وادعاء الربوبية في الصور الآدمية، وما يجري مجراها، مما ظهر فيما بعد في الذّرّية. وهم لم يكونوا يعلمونها. هنا فقط، عرفوا مكانة الخليفة، وأقروا بالتقصير، ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ ﴾[14]، أقروا بأن علمهم محدود، وأقروا بأن علم الله محيط، بذكرهم للاسم العليم. وأما بذكرهم الاسم الحكيم، فقد سلموا لله بأن يطلع على علمه من يشاء، لحكمة له في ذلك سبحانه؛ ويحجبه عمن يشاء، لحكمة أيضا له في ذلك. وفي تسليمهم هذا تسليم لآدم عليه السلام في علمه المختص به دونهم. وهذا بداية تأهيلهم للسجود له. يقول الله بعد ذلك:﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾[15]. أمر الله آدم أن يعلمهم بأسماء تلك الأحوال التي ظهرت منهم، ليظهر مرتبته عليهم. فلما أنبأهم آدم، عاد الله عليهم، يعلمهم أنه هو من أنبأهم في مظهر آدم، وذلك هو قوله: إِنِّيٓ أَعۡلَمُ ... فهو ظهر لهم بعد أن كان باطنا، وأخبرهم أنه هو

[14] . البقرة: 32.
[15] . البقرة: 33.

هو، يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما تبدي الملائكة وما تكتم. فعلموا أن الخليفة عين المستخلِف. وما كانوا يعلمون الحق في هذه الصورة من قبل. فلما علم الله منهم ذلك، أذن لهم في السجود له في هذا المظهر الجديد. فقال جل من قائل: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[16]، فبادر الملائكة إلى السجود، وما سجدوا إلا للواحد المعبود. وقد غلط من قال أن سجود الملائكة هو غير ما ذكرنا. وما غاب عنهم المعنى، إلا لأنهم ليسوا من أهل الله، أهل القرآن. فلا يغب عنك ما ننبهك إليه!

أما إبليس، فلم يكن من جنس الملائكة، ولا دخل في الحوار التّعلُّمي السابق. فهو أجنبي. لذلك بقي مع ما يعطيه الظاهر. فهو لم يكن مأذونا له بالسجود كالملائكة الذين أُعطوا الاستعداد، وإنما سمع الأمر، ولم يكن على علم بما استجد لديهم. وذلك أن الله حجبه عن الأسماء التي ستعمل فيه، من أجل إنفاذ القضاء. فأعطت أسماء الجلال فيه ما كانت الملائكة شاهدته في مشاهداتها، فأبى واستكبر، وكان من الكافرين. فظهر حكم آدم في الحال على الفريقين: فالملائكة كانوا طليعة أهل السعادة،

[16] . البقرة: 34.

الذين سيكونون تحت حكم الخليفة، إلى يوم القيامة؛ وإبليس كان طليعة أهل الشقاء الذين هم أيضا تحت حكمه. ومن هنا اختص الملائكة بالدعوة إلى الخير، والاستغفار للمؤمنين حيث كانوا طليعتهم، واختص إبليس بالدعوة إلى المعصية حيث كان الإمام فيها. فهذا هو معنى الخلافة. وإنا لن نخوض هنا، في حال إبليس، وما يستدعيه من تساؤلات في ذهن القارئ، لأنه لا يدخل في غرض الكتاب. ولعلنا قد نعرض لذلك في أحد كتبنا، في مستقبل الأيام إن شاء الله.

ولئن كانت الخلافة مقرونة بذكر آدم عليه السلام من حيث كونه أبا للبشر، فإنها بالأصالة ليست له، وإنما هو نائب فيها. فعلى التحقيق هو نائب الخليفة. أما الخلافة بالأصالة، فتعود إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك جاء عن النبي قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حَجته: « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض... »[17]. والدورة هنا هي يوم الدنيا، فنصفه بطون، وهو من بدء الخلق إلى بعثته عليه وآله الصلاة والسلام؛ ونصفه الآخر ظهور، وهو من وقت مبعثه عليه وآله الصلاة والسلام إلى يوم القيامة. ثم يأتي بعده يوم الآخرة. وما

[17] . من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود عن أبي بكرة. واللفظ للبخاري.

كانت هذه الإشارة منه صلى الله عليه وآله وسلم إلا ليدل على أنه هو الخليفة. وأما الأنبياء الذين كانوا قبله، أو الورثة الذين يأتون بعده، فإنما هم خلفاء بالنيابة عنه عليه وآله الصلاة والسلام كما أسلفنا. هذا من حيث تحقيق المعنى، أما من حيث إطلاق لفظ الخلافة، فهو يطلق على من كان قبله أو على من جاء بعده عليه وآله الصلاة والسلام. فقد ذكر الله ذلك في القرآن عن سيدنا داود عليه السلام فقال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[18]. ونؤكد أن من لم يظهر في المملكة بالحكمين، فما هو خليفة. فإياك أن تغفل عن الصورة الأصلية.

فإذا علمت ما ذكرناه لك، فاعلم أن الخليفة في الزمان واحد: وهو القطب الغوث. أما من دونه من الأقطاب سواء في دوائر التصريف أو في جماعات التربية، فهم خلفاء له. فهم خلفاء الخليفة.

ولنعد إلى الشيخ المربي. فإن كان هو قطب زمانه، فمريده جليس الخليفة. فلا دلالة على الله أكبر من دلالة شيخه، ولا مظهر للربوبية أجلى منه. من هنا قالوا: إن أغلب مريدي القطب ـ

[18] . ص: 26.

إن كان شيخا ـ ينـالون مرتبـة الفردانيـة. وهـي أعلـى درجـات المقربين. أما إن كان الشيخ غيره، فهـو ومريـدوه تحـت حكمـه، علموا أم لم يعلموا. ويكون الشيخ وقتذاك خليفة فـي جماعتـه أو في بلده فحسب. وخلافة الأدنـى جزئيـة، بخـلاف الأعلـى، الـذي تكون خلافته كلية.

والمقصود بالوارث المحمدي، الوارث الجامع، الـذي هـو صـورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في زمانـه. ولا يكـون إلا واحـدا كما سبق أن ذكرنا. أما من عداه من الورثة، فينسبون إلـى غيـره من الأنبياء عليهم السلام، لأنهم أبعـاض مـن حقيقتـه. والحكـم يكون للصفة الغالبة. لذلك تجد من الوارثين الجزئيين، من يمتـاز بعلمه، وتجد من يمتاز بالحال، وتجد من يمتاز بالأخلاق...وهكذا.

اضطررنا لتفصيل الكلام في الخلافة، حتى يجـد القـارئ أصـلا للوراثة الإمدادية، ويعلم من صاحبها ومن النائب فيها. فإننا وجدنا أن هذا العلم لا يكاد ينبه إليه أحد في زماننا. فإن حـدث، فمـع كثير من الخلط واللبس، اللذين ما زادا السامع إلا حيرة وريبة.

2. التربية المخالفة للفطرة:

يقـول اللـه تعـالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[19]، فـدل علـى أن الـنفس واحدة من حيث النوع، اثنتان من حيث الإمـداد. وهـو عـين مـا ذكره الله في موضع آخر بقولـه سـبحانه: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[20]، بعـد أن ذكـر مـن يريد الدنيا ومن يريد الآخرة. فالنفس الفاجرة لهـا مـدد الفجـور، والمتقية لها مدد التقوى. ثم ذكر سبب الإلهام لإحدى السبيلين (نيل المدد)، فجعل التزكية سببا لنيل إمداد السعادة، والتدسيس سببا لنيل إمداد الشقاء. وكما أنّ "زكّى" مزيد مـن "زكـا"، فـإن "دسّى" مزيد من "دسا". وهما على الضد. فزكا: نما وصلح؛ ودسـا فسد وغوي. وقد أشرنا سابقا إلى أن ورود لفظ الزكـاة، يـنم عـن وجود أصل في خلقة الإنسان إذا نماه وتعاهده، فإنه يصلح ويكون مآله إلى خير. وكذلك الدّس، يتضمن معنى الإخفـاء. فكـأن غيـر الموفق يخفي و يغيّب ذلك الأصل. ومـا هـو إلا الفطـرة كمـا قـد أوضحنا من قبل.

---

[19] . الشمس: 7 - 10.
[20] . الإسراء: 20.

فالتربية التي ذكرناها سابقا، والتي هي التربية الشرعية بفرعيها: العام والخاص، هي التزكية. ويأتي في مقابلها التربية غير الشرعية، بفرعيها: التام، والمختلط، وهي التدسيس.

والتدسيس التام، هو التربية على الكفر. وفيه جاء الحديث: « ...فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...»[21]. فالتربية على الكفر تطمس الفطرة. فإذا انطمست، ما عاد صاحبها يبصر إلا الظلمة، ونعني بها العدم. ويظهر ذلك منه في ركونه التام إلى المحسوسات، وكفره بالمغيبات.

أما التدسيس المختلط، فهو كالذي يحدث في زماننا مع أغلب أمتنا. وذلك أن تربيتهم الأسروية، لا تخلو من قدرٍ ما من التنشئة على الدين الحق؛ ولكن، تختلط بها أمور ليست منها، وإنما هي متسربة من البيئة الاجتماعية، التي قد تأخذ عن أمم كافرة في بعض جوانبها.

وهنا، لا بد أن نذكّر بأن كل قول أو عمل، فهو يستصحب معه أصله من نور أو ظلمة، حتى فيما يبدو أنه هين الخطب كالعادات. من هذا الباب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اتباع سنته الشريفة كما في الحديث: « أوصيكم بتقوى

[21] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة، والترمذي وأحمد.

الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[22]. ووصيته صلى الله عليه وآله وسلم باتباع سنته، هي من أجل تنور العاملين بها؛ فيكونون معينين له صلى الله عليه وآله وسلم على أنفسهم. ووصيته صلى الله عليه وآله وسلم باتباع سنة الخلفاء الراشدين من بعده، هي بسبب التجديد الذي يحصل في الدين، والذي هو من أصوله. فقد جاء في الحديث أيضا:« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[23]. والخلفاء الراشدون ليسوا محصورين في الخلفاء الأربعة المرضيين، وإنما يتعدونهم إلى الخلفاء بالمعنى الذي ذكرناه سابقا؛ أي بمعنى الخلافة التربوية. ويعضدنا، أن المجددين الذين لا يخلو منهم قرن، هم الخلفاء الأربعة في زمنهم، وغيرهم ممن جاءوا في الأزمنة التي بعدهم.

وكما أن للسنة النبوية نورا، فإن للسنة الكفرية ظلمة. ولولا ذلك ما ورد النهي عنها. وهذه السنة الكفرية قد صارت لها شعب في

---

[22] . أخرجه أبو داود، وأحمد والترمذي.
[23] . أخرجه أبو داود في سننه.

مجتمعاتنا، لا يخلو منها إلا من رحم الله. فمنها ما يدخل في نطاق العادات: وتشمل عادات الأكل والنوم واللباس والحلاقة والألعاب والسياسات التي تنظم الشأن العام وغيرها. ومنها ما يدخل ضمن التربية نفسها، وهي الأصول الكفرية المعتمدة في التربية النظامية التي تسير على سنَن التربية عند الكافرين؛ أو تلك التي تصيب الفروع كالأساليب التربوية المعتمدة، أو الغايات الإجرائية التي تستهدفها، أو المعايير التقييمية التي تعتمدها. وكلها تستصحب أصلها الظلماني معها، شعر به المربّى أو لم يشعر به؛ وعلم به المربّي أم لم يعلمه. لكن النتائج النهائية حتما تدل عليه.

وحالة التخليط التي تعيشها أمتنا في عمومها، والشك في بعض جوانب الدين، والتسليم للإمام الكافر (نعني اتخاذ أمة كافرة إماما)من غير تبصر، والضعف الذي أصاب الإيمان والذي انعكس على الشخصية، حتى صار الناس عندنا أعدادا لا قيمة لها تذكر؛ والرغبة في الدنيا التي غطت على طلب الآخرة، إلا ما كان من توهم باهت لا يصدقه عمل ولا حال؛ وشرك عملي لا ينكره إلا من لا علم له؛ وغفلة لا يطيق الناس الخروج منها من شدة سقم

قلوبهم؛ وغير ذلك من مظاهر الظلمة التي لا تكاد تنحصر فروعها، تدل حتما على أن هناك اختلالا في الأسس التربوية.

فإنا لله وإنا إليه راجعون!

في هذه الظروف، أصبحت التربية العامة ملحقة بالتربية الخاصة. نعني، أنه من يرد أن يتحقق بمرتبة الإسلام، فلا بد له أن يكـون تحت نظر شيخ سلوك، حتى يحفظه من التلطخ بـالأمراض التـي أصبحت متفشية في الأوساط الدينية، بعد أن أصبح التدين عند الأغلبية، انخراطا في النفاق العام، وفسادا مبيَّض الوجه (على غرار المبيضين للأموال).

الفصل الثاني
الإرادة

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[24]. ميز الله هؤلاء الذين يريدون وجهه عن الذين يريدون الحياة الدنيا، أو يريدون الآخرة. وجعل صفتهم أنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي، أي أنهم مولون وجوههم إليه سبحانه في مختلِف الأحوال. وجعل سبحانه أمرهم إليه دون رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو الواسطة بين الله وعباده؛ وهذا تشريف لهم من دون الناس. نقصد أن متوليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليس الوجه الرسالي، وإنما هو الوجه الإلهي. ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

[24] . الأنعام: 52.

عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[25]. آمرا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، بأن يصبر نفسه معهم. وذلك لأنهم أولى الناس به، ولأن النظر في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم هو نفس إجابة دعائهم؛ ناهيا إياه أن يتعداهم بالنظر إلى من سواهم من أهل الدنيا، أو أن يطيع فيهم أهل الغفلة والهوى. وفي هذا عناية منه صلى الله عليه وآله وسلم خاصة بهم. وجاءت هذه العناية الخاصة، في مقابل ما يعطيه ظاهرهم في الغالب. وخذ على ذلك مثلا أهل الصُّفّة من الصحابة رضي الله عنهم. وقيل إن هذه الآية نزلت لما طلب وجهاء قريش أن يخصهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون فقرائهم بمجلس خاص. فتغير باطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا كما يقول بعض المفسرين، حدثته نفسه بإجابتهم. فهذا لا يليق بمقامه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأنزل الله الآية موافقة لباطنه صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا الأمر في كل زمان. وذلك بسبب كون المريدين لوجه الله، يهملون مظهرهم، ولا يتكلفون للناس. انصرافُ قلوبهم إلى الله، صرفها عن تدبير أبدانهم بما يوازي ما هو عليه مجتمعهم. فصارت النفوس

[25] . الكهف: 28.

تنفر منهم، وتفضل عليهم الوجهاء، والفصحاء، والمتزينين للناس. وهذه الوصايا الإلهية، إقبال منه عليهم، جزاء إقبالهم عليه سبحانه. فمرتبتهم شريفة، ودعاؤهم مستجاب. فمن عرف قدرهم فقد فاز برضى ربه؛ ومن احتقرهم، أو آذاهم، فقد عرّض نفسه للمقت. انظر يا أخي، كيف أن عزة الله اكتنفتهم وحمتهم، لتعلم أن طلب وجه الله ليس بالأمر الهين.

يريدون وجهه: يتفرسون في صور الأكوان، يريدون أن يخترقوها بنور توجههم إلى وجه مكونها. هم لا يقنعون بشيء من الدنيا أو الآخرة عن وجه ربهم. حتى أن بعضهم قال: إن الله لما أنزل: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾[26]، في حق بعض صحابة نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، إنما كان يعاتبهم على إرادتهم تلك، ويحضهم على إرادة وجهه الذي لا يعدل به العبد العاقل شيئا. سبحانه!

إرادة وجه الله، حال يصيب العبد بسابق العناية، فيأخذه عن العادات والمألوفات؛ ويُطير النوم من عينيه، ويذهب براحة باله. هو شوق حارق، لا يهدأ ولا يغيب. عندما أصاب قوما سابقين، كاد يتلف مهجهم، كما وقع لأبي حامد الغزالي رضي الله عنه، حتى

[26] . آل عمران: 152.

قيل ما استطاع أن يَطعم زهاء ستة أشهر؛ وهيَّم آخرين على وجوههم في البلاد المختلفة، يوافقون بحال ظاهرهم حال باطنهم المتغرب عن المخلوقات. أنسوا بما استوحش به غيرهم، واستوحشوا مما أنس به غيرهم. وقد ذقنا ـ ولله المنة ـ من هذا الحال منذ بداية تمييزنا، ما ظننا معه أنه الجنون. فلم نكن نقنع بشيء، ولا نتطلع إلى شيء مما يتطلع إليه أقراننا. وكنا نسير بعكس اتجاه ما الناس عليه. نفرنا من الدنيا وبهرجتها، ولم نجد من باطننا تعلقا بآخرة. حتى كان الموت الحسي، أطيب أمانينا، من كثرة ما لاقينا.

وفي قصة الششتري عند لقائه الشيخ ابن سبعين، وقد كان ينوي الذهاب إلى الشيخ أبي مدين، رضي الله عن جميعهم؛ فقال له ابن سبعين: "إن كنت تريد الجنة، فاذهب إلى أبي مدين، وإن كنت تريد رب الجنة، فهلم إلي"؛ ما يبرز المعاني التي أشرنا إليها آنفا. نقول هذا وننبه إلى أن أبا مدين رضي الله عنه كان من أكابر أهل الله؛ ولكنه الحال من ابن سبعين أخرج منه ما أخرج. وهذا يحدث كثيرا من أهل الله، فيختلط على من لا علم له بطريقهم. وإنكار الفقهاء أو العامة على المريدين أحوالهم، هو بسبب عدم ذوقهم لها. فيتصورون أن لا شيء أقوم

مما هم عليه. وهذا من الجهل المركب كما هو معلوم. ولله حكم جليلة في تسليط العامة على المريدين، قد نعرض لها في إبانها.

1. المريد والمراد:

اعلم أن كل مريد مراد. فإرادة المريد وجه الله، من إرادة الله لذلك المريد. وإلا كيف يخطر بباله ذلك! فصفة المراد التي يطلقها أهل الله، على هذا، تكون على وجه عام، وآخر خاص.

فالعام: يتعلق بكل مريد لله، من حيث كونه معتنى به في الأزل. لكن المريدين، يكون ظاهرهم مع الكسب، ومكابدة الطريق. فمن أجل هذا اختصوا باسم المريدين.

والخاص: يطلق على من ظهرت عليهم آثار العناية الإلهية، حتى غطت وجه الاكتساب منهم. وهؤلاء هم المرادون، وهم لا يتقيدون بصفة ولا يفتقرون لأسباب. مركبهم القدرة، وعمدتهم الوهب.

وإن حققت، فما يقع التمييز إلا بالصفة الغالبة، وإلا فهم جميعا مشتركون في كل الأركان.

2. شروط الإرادة:

ا ـ اتباع الشرع: فلا يُتصور من المريد أن يريد وجه الله، وهو معرض عن أمره. فأول الشروط، اتباع الشرع في الصغيرة والكبيرة،

وتحرّي ذلك بتعلم ما تقوم به عبادته، ومعاملته. أما العقائد التي أسسها المتكلمون فلا تلزمه في شيء، ويكتفي منها بما يعلمه من صريح الكتاب والسنة، من غير تكلف في التأويل؛ وإنما يأخذ ذلك بالتسليم. هذا هو الأصل الجامع، الذي يسهل معه عليه قبول الحق الذي سيرد عليه في التعرفات الإلهية. أما إن كان معتنقا لعقيدة كلامية، أو فكرية (كما نراه كثيرا في زماننا)، فليعلم أنه لن يقبل من الحق الوارد عليه إلا ما وافق تلك العقيدة، وسيُحجب عن باقي وجوهه؛ وبالتالي ستكون معرفته ـ إن عرف ـ جزئية.

وهذا الأصل يغفل عنه كثير ممن يدعي الإسلاك. بل رأينا أغلبهم يلزم المريد بعقيدة معينة، إلى جانب الذكر؛ فيوثقونه من حيث يريدون إطلاقه.

نعم، لن يستطيع المريد أن لا يكون على عقيدة في أثناء سلوكه؛ لكن تلك العقيدة تكون مطابقة لما يعطيه كل مقام من علم. نحن لم نكن نقصد هذه العقائد المتطورة مع السلوك، وإنما عنينا تلك التي يجعلها تصورا جاهزا مكتملا ـ في نظره ـ من خلالها ينظر إلى ما يعرض له. هذه هي التي تكون حاجبة له عن الحق.

ولقد كان سلف الأمة الراشد على هذا النهج. فلم يكونوا يخوضون في التفاصيل التي خاض فيها الخلف، معتمدا فكره وحده؛ وكأن موضوع العقائد من العلوم العقلية، كالرياضيات وما شابهها؛ بل كانوا موفقين، يعملون بما علموا من الشرع الحكيم، فيفتح الله على من يشاء منهم بما يشاء، فيزدادون لعملهم تصفية وإتقانا، فيزيدهم الله من فتحه، وهكذا... فكانوا يمتازون عن بعضهم ـ ونخص الصحابة والتابعين ـ بالدرجات في العلم، لا بالانتساب إلى هذه العقيدة أو تلك. فقارن بين حالهم وما أنتجت لهم، وبين أحوال المتأخرين، وما أنتجت لهم؛ تعثر على ما ننبهك إليه.

ب ـ حسن الظن بالمسلمين:

مقام الإرادة، هو مقام الجهل. ومن كان جاهلا، فلا يحسن به أن يحكم على غيره، فضلا عن أن ينظر إليه بتنقيص. فعلى المريد أن ينظر إلى كل المسلمين بتعظيم، وأن يعتقد أنهم على الحق إجمالا، من غير انحياز إلى مذهب دون غيره. وهذا لا يمنعه أن يكون على مذهب فقهي مخصوص في نفسه، فليس هذا ما نحذر منه. وليجهد أن ينزّل أحكام الشرع المعلومة لديه على نفسه، وكأنه المكلف الوحيد بها. وهذا أيضا لا يمنعه من إسداء النصح

لغيره وقت اللزوم، كما لا يمنعه من اعتزال من يراهم على مخالفة بيّنة.

فإذا كان مطلوبا منه إحسان الظن بالمسلمين عامة، فأولى به أن يعظم منهم من يعلم له خصوصية علم أو صلاح أو ولاية، من دون أن يتكلف التمييز بينهم أو التفضيل؛ فإن ذلك يدخله في سوء الأدب مع الله ثم مع عباده. وعليه أن يعظّم سلف الأمة الذين جاهدوا حتى بلغ الدين إليه ميسرا دانيا. وعليه أن لا يدخل في الخصومات التاريخية، التي يجهل خلفياتها المختلفة؛ فإن ذلك يدخله دائرة الظلم، وشهادة الزور. وليعتبر من يظهر له منهم أنه قد خالف الحق، مجتهدا مخطئا. هذا إن كان المنظور إليهم من التابعين أو من تابعيهم. أما إن كان الأمر يتعلق بالصحابة رضي الله عنهم، فليجعل نظره إليهم من تحت، حتى يراهم كلهم أسيادا له. وليجعل التفضيل بينهم من المحرمات عليه، فإن مقامه لا يبلغ به مكانة الأهلية لخدمتهم، فكيف بالحكم عليهم رضي الله عنهم. وليسهُلَ عليه الأمر، فليعتبرهم أعضاء من ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيكون تعظيمه لكلهم من غير تبعيض.

وقد استخف قوم بهذا الأصل، فعاد وبالا عليهم. ودخلوا في سوء الأدب مع الصحابة رضي الله عنهم، فما لبثوا أن انجروا إلى سوء الأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. نسأل الله العافية!

يتفرع عن هذا، وجوب عدم الدخول في الخلافات الراهنة على المريد، خصوصا منها ذات الخلفية السياسية، حتى وإن كان فيها من جملة المظلومين، لأنه يفترض فيه عدم الالتفات إلى الحظوظ. كل هذا فيما يعود إلى القلب؛ أما فيما يعود إلى أحكام الظاهر، فالشرع إمامه، بحسب ما يعطيه علمه به. وكل ما لا يعلم حكم الشرع فيه يتركه، أو يؤجل النظر فيه.

ج ـ البحث عن الشيخ الذي يأخذ بيده:

لا بد للمريد أن يبحث عن شيخ واصل، عالم بأحكام الظاهر والباطن، حتى يدله على المسالك الآمنة في أثناء سلوكه الطريق إلى الله تعالى. ولا بد في أثناء بحثه، أن يعرض له واحد أو أكثر ممن يتصدر للإسلاك. فعليه أن يعتمد فتوى قلبه فيه: فإن وجد انشراحا، وأنسا، فليمض قُدُما، وليتوكل على الله؛ وإن وجد انقباضا ووحشة، فعليه أن يبحث عند غيره، دون أن يسيء الظن به أو يقع فيه بالتنقيص. وذلك أن فتوى قلبه لا تنبئه بمقام الشيخ أو

بصحة دعواه، إنما تدله على كـون رزقـه البـاطني عنـده أو عنـد غيره. فهذه الأمور محسومة في الأزل. وقد اختلط الأمر على كثير من المريدين في هذه المسألة على التعيين، فأسـاءوا الأدب مـع الشيوخ، فلم يفلحوا. والأدب عمدة المريد فـي هـذا الأمـر أو فـي غيره، فليتحفظ!

وليحذر المريد أن ينساق خلف المقولات الشائعة عند العامة من كون أهل الله لم يعد لهم وجود، أو أن الفساد عم حتى لـم يبـق معه صالح...فإن هذا وأمثاله من الجهل المورث لسوء الظن باللـه. فإن الدالين على الله لا يخلو منهم زمـان، علـى المـرء فقـط أن يسأل الله أن يكون أهلا للأخذ عنهم.

ثم على المريد أن يحذر المقولات الإسلامية الحركية، لأن أهلها لم يتزكَّوْا، وهم ينطلقون من الدين من حيـث كونـه إيـديولوجيا (نقصد الجانب الذي يمثل عندهم الخلفيـة الحركيـة، لا جـانبهم الإيماني). وليسلم لهم أمورهم، ولا ينتقدهم إلا فيما خالفوا فيـه صريح الـشرع. فـإن اللـه تعـالى أقـام كـل أنـاس فـي مقـامهم. والاعتراض على المقام، عندنا من الجهل الحاجب عن الحق.

وليحذر أيضا المتصوفةَ، ونخـص المرتزقـة مـنهم. وذلـك لأنهـم يزعمون أنهم أصحاب الطريق والحاملون للوائها، وهم أبعد الناس

عنها. يظنون أن تلفيقات الكلام التي ينتهجونها يمكن أن تسد الخواء الذي يعيشونه. ويظنون أن تعصبهم الجاهل لأهل الله، سيقربهم منهم. نسوا أن أهل الله عبيد، يرضيهم ما يرضي سيدهم. أما الصادقين منهم، الكافين أذاهم عن الناس، والمشتغلين بإعمار بواطنهم، فليسلم لهم مقامهم، وليتأدب معهم، دون أن يتقيد بما ألزموا أنفسهم به.

وليعلم الطالب للحق، أنه ما كل من تسمى شيخا، هو شيخ بالحقيقة. وليكن قلبه متوجها إلى الله، حتى يأمن أن يقع تحت إضلال المضلين؛ فإنه لا يدله على الشيخ إلا ربه. وأغلب من يتكلم عن الشيوخ ممن يريدون أن يكثروا أتباعهم بحق أو بباطل، يجهلون ما يتكلمون فيه، وينطقون أحيانا بما لا يوافق عقلا أو شرعا أو حقيقة.

وكل من خالف هذه الشروط، فهو غير مؤهل للأخذ عن الشيخ، إلا إن كان تكميل الشروط لديه هو مما يأخذه عنه. وهذا قد يحدث، بسبب كثرة الفتن، وشيوع المخالفات التي تدنس القلوب. فإن المعاصي إن تفشت، صار الناس ينظرون إليها باستخفاف، وصاروا يظنون ـ رغم وجودها ـ أنهم على خير.

الفصل الثالث
لقاء الشيخ

إذا أراد الله بعبد خيرا، جمعه على شيخ رباني. فمن حصل له ذلك، فعليه أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى، التي هو حتما لا يعلم في البداية قدرها.

1. آداب الدخول على الشيخ:

فإذا دُل المريد على شيخ يلتمس عنده التربية، فليدخل عليه متوجها إلى الله، مفتقرا إليه. وليكن متيقظا لما يفعل الشيخ وكأنه في خلوة معه. فإن كان في غرفة، فلا يتفحصها متفقدا ما فيها من الأثاث، وإن كان معه غيره، فلا يلتفت إلى أحد من الجلوس بغية التعرف عليه؛ فإن من يفعل ذلك، لا يقبل الله عليه. وهو عند العارفين من علامات عدم الأهلية بسبب غلبة الحس ونقص التوجه. فإن سلّم عليه، فليتأخر إلى موضع جلوسه أو حيث يشير عليه إن أشار. ولا يتكلم بحضرته إلا إن طلب منه ذلك؛ فإن أهمله وأقبل على غيره، فلا يحدث نفسه بشيء، كأن

يبحث عن سبب ذلك، فإنه من علامات الخذلان. وإن كان المريد صاحب علم شرعي أو عقلي، فليطرح علمه وفهمه على عتبة الباب قبل الدخول؛ فإنه مقبل على مجال لا خبرة له به، وعلى رجل لا يعلم من أمره شيئا، إلا أنه في ظاهره من البشر. وهو لم يأت عنده إلا طلبا لما يمتاز به عن سواه، لا لما يشترك فيه مع غيره. فإن رأى من الشيخ ما يخالف دقائق العلم والآداب العامة، فليقل في نفسه هذا مما أجهل وجه الحق فيه، وليسلم له في كل أمره. فإنّ أكثر فساد المريدين، من هذه الوجوه.

فإن أمره الشيخ بشيء فليبادر إليه، ولا يفضل عليه شيئا، وإن كان المأمور به من أمور العادة. فإن وظف عليه أذكارا، فلا يتقاللها. وإن كان ذكره من الذكر العام، فلا يستحقره وينظر إلى من يذكر ذكرا خاصا على أنه محظوظ. وذلك لأن مدد الشيخ لا ينحصر في لفظ أو عدد. ونظرة الشيخ لا يعلمها إلا هو. وكل تخمين المريدين هو لغو من الفكر، وحديث نفس باطل.

والمريد الصادق يكون مع الشيخ بالهيبة والتعظيم. ومن كان كذلك فإنه لا يميز ما يقع أمامه أو ما يسمع إلا بقدر الضرورة. ولسان حال باطنه يقول: يا سلام سلّم. فإن الداخلين على الشيوخ كثر، والفائزين معهم قلة.

وعند الخروج من حضرة الشيخ، عليه أن يشتغل بما ينفعه من طاعات. وليجتنب الكلام من غير ضرورة، حتى وإن كان فيما يبدو أنه خير. ولا يكثر من امتداح الشيخ بلسانه، فإن ذلك يكون حجة عليه. وليجهد أن لا يغيب عن ذهنه طرفة عين، فإن ذلك من أسباب تعلق قلبه به.

وليعتقد بقلبه في كل أموره أنه على نية شيخه فيها، حتى لا تدخل عليه الظلمة من نفسه في الأعمال والأحوال.

فإذا أدى ما عليه تجاه شيخه، فلا يجترئ على باقي الشيوخ، فإن ذلك من علامات المقت. وصاحب هذا الفعل لا يفلح. وقد رأينا كثيرا من المريدين، لا يراعون لأحد من أهل الله المعاصرين لشيخهم حرمة؛ وكأن تعظيم شيخهم يقتضي التنقيص من غيره! ويظنون أن ذلك هو الفناء في الشيخ المطلوب منهم. وما هو ذاك! بل هو إبليس يتلاعب بهم ويجرهم إلى هلاكهم.

ومن أراد أن يسلم مما ذكرنا، فليكن مع شيخه كأنه ليس معهما أحد على وجه الأرض، حتى يقارنه به أو يتكلف عدم الالتفات إليه. فإن سمع اسم شيخ من الشيوخ أو رأى صورته، فليعتقد جازما أن الاسم هو من أسماء شيخه، وأن الصورة من

جملة صوره. هكذا، حتى لا يتشتت توجهه، ويفوز بالأدب مع الجميع. وما رأيت من يعمل على هذه الشاكلة! فإنه من أعلى صنوف سياسة النفس.

2. حقيقة الشيخ:

الشيخ هو حقيقة المريد. فمن وجد حنينا إلى الشيخ في البداية، ووجد انجذابا لا يعلم له سببا في الظاهر، فليستبشر، وليعلم أنه وقع على شيخه. فإن الشيخ قد يكون شيخا في حق واحد ولا يكون كذلك في حق آخر. وهذه قِسَم أزلية كما قلنا.

ومِن وجه كون الشيخ حقيقة المريد، يكون ترقي المريد في شيخه. فهو بنظر قلبه (بصيرته) يتعرف على شيخه، وفي الحقيقة ما يتعرف إلا على نفسه وهو لا يدري. فالشيخ من هذا الوجه مرآة يرى المريد فيها نفسه. وقد ورد في الحديث:« المؤمن مرآة المؤمن...»[27]. لذلك فإن رأى المريد في شيخه الخصوصية والكمال، فليعلم أن الباب فتح له إلى السير؛ وإن كان يرى فيه نقصا أو عيبا، فليعلم أن تلك صفته. ومثل هذا لا يكون مؤهلا للسير إلى الله، إلا إن تاب الله عليه، واستأنف النية والتوجه.

[27] . من حديث أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي بلفظ آخر من طريق غيره عن أبي هريرة.

ولا يكون الشيخ مرآة حتى يكون مطلقا، فإن الصور لا تنطبع في بعضها. والإطلاق هنا هو السذاجة الذاتية. فمن كان كذلك، فهو المرآة حقيقة؛ ومن كان دونه، فليس له من حقيقة المرآة إلا النصيحة العامة. ومثل هذا لا يعد عندنا من كمّل الشيوخ في الطريق.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[28]، ما ينبئ بأن المخاطب الذي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو الوجه المطلوب. وما سمي الوجه وجها، إلا لأنه يواجه الناظر. والشيخ الرباني هو أيضا الوجه المراد لتلامذته، وراثة نبوية. وإن الناس يغفلون عن هذا المعنى، مع كونه جليا. ولا يسألون أنفسهم لمَ أُمِر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمجالسة المريدين لوجه الله، مع كونهم كانوا يحظون بالمعاملة العامة منه صلى الله عليه وآله وسلم، كغيرهم من المسلمين؟ أما قول الله بعده: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾، والذي قد يحجب عن المعنى الذي ذكرناه؛ فالمقصود منه: لا تعد عيناك بالإمداد والتربية الخاصة هؤلاء الذين يريدون وجه الله، إلى

[28] . الكهف: 28.

أولئك الـذين يـوحي ظـاهرهم الفـاخر أنهـم مـن خاصـة القـوم، بالمعايير الدنيوية. فالأمر ليس بالمظاهر وإنما بالمخابر. والمعيـار عند الله، غير ما هو عند الناس. ولا تطع أمر من يقول غيـر هـذا. وهذا كلام مطابق لباطن رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسـلم، كما سبق أن بيّنّا في موضع آخـر. نقـول هـذا حتـى لا يحجـب القارئ بما يفهمه من ظاهر الكلام، عما يليق برسـول اللـه صـلى الله عليه وآله وسلم. وقد دخلت الظلمة علـى كثيـر مـن النـاس، بسبب سوء أدبهم معه صلى الله عليه وآله وسلم. وإذا وجد العبد في الوحي ما لا يعلم حقيقته، فليسلم فيه إلى الله، ويحسن الظن بربه وبنبيه، وليتهم نفسه.

فإذا أدركت ما دللناك عليه، فاعلم أن الله يتعرف للمريدين فـي شيخهم. وعلى هذا، فمن كانت نظرته إلى شيخه تخـرج بـه عـن العادة، إلى التجلي الإلهي بحسب المقام، فليعلم أنه يسير(أي هو سالك)؛ ومن كانت نظرته في شيخه على نمط واحـد، وإن كانـت بتعظيم، فليعلم أنه لا سير له، أو هو متوقف.

والمقصود من سير المريد، هو الوصول إلى الله. ولا يصل المريد إلى الله بنفسه أبدا. فبقي أنه يصل بشيخه. وهذا يقتضي منه أن يصير عين شيخه. لذلك كان الفناء في الشيخ شرطا في الوصـول.

ولا يحجبنك ما قد يظهر للعقول من إحالة ما نقـول فـي الواقـع. فتقول: كيف يصير المريد عين شيخه، وهو غيره؟! فـاعلم أن مـا نخاطبك به هو الحق المحض، والحقائق تعضده. واعلم أن الـذوق يفتح للمريد أبوابا ما كانت تخطر له على بال.

ولْتعلم أن التدين والترقي فيه، شرطه الإيمان بالغيب، كما فـي قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾[29]. وإياك أن تحصر الغيب، في غيب دون غيب؛ وإنما الغيب يكون بحـسب المقام. فكم من غيب عند قـوم، هـو عنـد قـوم آخـرين شـهادة؛ فيكون الغيب في حقهم شيئاآخر. وهكذا...

فالمريد الذي يرجو أن ينال ثمـرات الطريـق، لا بـد لـه أولا أن يؤمن (يصدّق) بما نخبره به. هذا أول شرط يُطالب بـه! فـإن لـم يفعل، فليعلم أنه غير مؤهل لسلوك طريق الخـصوص، ولينـصرف عنهم بأدب وعدم اعتراض، حتى يكون من عامة الأبـرار النـائلين للسلامة.

وحتى تدرك بعض أصول السلوك، فإننا سنسير معك في الإشارات التي تتضمنها سورة الكهف، من قصة موسـى عليـه الـسلام مـع تلميذه يشوع بن نون رضي الله عنه. واعلم أن ما سنذكره لك، هو

[29] . البقرة: 3.

من علم التأويل، فاشحذ ذهنك! لكن قبل ذلك علينا أن نُكمل الكلام عن بعض ما يتعلق بالشيخ.

3. شرط الشيخ:

تكلم بعض الناس في شرط شيخ التربية، فذكروا شروطا عدة، لا نختلف عليها. وهي تَسَع الشيخ الرباني، وغيره. ونحن نرى في ذلك تعميما مخلا بالعلم. والشيخ الرباني شرطه في الحقيقة واحد، جامع للشروط التي يتكلم الناس فيها؛ ويزيد عليها بما هو ميزة للشيخ الرباني وحده. والشرط الذي نعنيه، هو السّر.

والسر، هو تحصيل مقام روح الروح. وقد يطلق عليه البعض "المعنى". يريدون أن يشيروا إلى كونه أصلا للمعاني. وبما أن المعاني، من مقام الروح، فإن المعنى (بالإفراد والتعريف) يكون من مقام روح الروح الذي هو السر.

واسم "السر" يوافق أيضا كونه، يحرم الكلام فيه، إلا بطريق الإشارة، إذا كان مع أهله. وكلما حاول المرء الخروج به إلى العبارة، ازداد غموضا، أو فُهم منه غير المقصود. وما ذلك إلا لعزته، وغيرة الله عليه. وهو نفسه (أي السر)، الذي سماه الله روح القدس، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا

﴿[30]. وقد ذكر كثير من المفسرين، أن المراد بروح القدس، جبريل عليه السلام؛ والواقع غير ذلك. يعضد ما نذهب إليه، جعْل كلام عيسى عليه السلام للناس في المهد وكهلا من أثره. ومعلوم أن ذلك لم يكن من جبريل كلُّه، خصوصا الكلام في المهد. ويعضده أيضا فهم النصارى أنفسهم من اسم "روح القدس"، فإنهم لا يفهمون منه الملاك الموكّل بالوحي. وإن كان فهم النصارى لا يُلزمنا، فإنه يأتي في سياق ما ذكرناه. ويعضده أيضا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «يا حسان أجب عني! اللهم أيده بروح القدس»[31]. فالتأييد المدعو به لحسّان، ليس من جبريل. وستلاحظ أن روح القدس يُنسب إلى الأنبياء، والأولياء. هذا يعني أنه منسوب إلى الأنبياء من حيث هم أولياء، لا من حيث هم أنبياء. وسيتضح لك بعد هذا، وجه نسبته إلى عيسى عليه السلام وهو في المهد.

فالشيخ الرباني، يشترط فيه السّر بالمعنى الذي بيّنّا، وهو مخالف في المدلول للفتح الأكبر الذي يكون للأقطاب. فهذا الأخير ليس شرطا في شيخ التربية. والعامة (عامة المريدين) يخلطون بين

---

[30] . المائدة: 110.

[31] . أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ للبخاري، عن حسان بن ثابت وهو يستشهد أبا هريرة رضي الله عنهما.

المعنيين، فيظنون أن كل شيخ تربية هو صاحب فتح أكبر حتما. وهو غلط كما أوضحنا. وحتى تميز الأمر، عليك أن تفرق بين شيوخ التربية، وبين أصحاب المراتب من الأولياء. وفي الحقيقة التربية والمراتب هما أمران متوازيان، مع العلم أن الله قد يجمع لبعض عباده بين الأمرين. فاعلم فيمَ يقع الاشتراك، ومتى يكون.

أما الشيخ، الذي يُعرف عند الناس بهذه الصفة، ولا سر له، فما هو شيخ رباني. فقد يكون من أئمة مرتبة الإيمان، وقد يكون شيخ تبرك، كما يمكن أن يكون كذابا. وأئمة مرتبة الإيمان يمكن للمريد أن يحقق معهم إعمار باطنه. ونعني به تحقيق مقامات الإيمان[32]. أما شيوخ التبرك فقد يحصل معهم الأجر ونيل ثمرات التبرك في الدنيا والآخرة إن هو سد مداخل الظلمة لديه؛ لكن لا ترقي مع هؤلاء. أما الصنف الأخير، فإنه يكون سبب هلاك من يتبعه.

4. الموانع عن الشيخ:

أهل الله هم الملوك حقيقة. وإن كان ملوك الدنيا يتعززون، ويتخذون الحرس، ويتحصنون بالجنود؛ فما بالك بالملوك الأحقاق! ولا يغررك ما تراه من بساطة ظاهرهم، أو من مظاهر افتقارهم،

[32] . انظر كتابنا "مراتب العقل والدين".

فتظن أنهم كغيرهم! فوالله لو علم الناس ما هم عليه، لعبدوهم من دون الله، بسبب عدم تمييزهم للمراتب.

فإن كان ملوك الدنيا لهم الجنود المعلومون، فأهل الله لهم جنود الغيب. ولهم حجب الجلال والهيبة. لذلك، لن يصل إليهم إلا من أرادوا وصوله؛ أما غيرهم، فلن يعرفوا خصوصيتهم حتى وإن كانوا يسكنون معهم نفس البيت؛ أو كانوا يعرفونهم منذ ولادتهم؛ أو غير ذلك مما يكون من أسباب المعرفة بين الناس في العادة. ولا ينبغي أن تعجب من حالهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾[33].

وعزتهم ليست من عزة المؤمنين فحسب (إلا إن كان المقصود من المؤمنين كاملي الإيمان)، ولكن عزتهم من عزة الله ورسوله.

ومع أن أمر عزتهم غيبي، إلا أن له مظاهر تخرج إلى الشهادة. فإذا رأيتها (أي المظاهر) فلا تتوقف عندها، واربطها مع ما ذكرناه من السبب الغيبي، حتى تكون من المعتبرين.

فإذا أراد الله صرف أحد عن أهله وخاصة أوليائه، جعلهم يُحجبون ببشريتهم عن خصوصيتهم؛ فيقولون كما قال من على شاكلتهم عند انحجابه عن إمامهم الذي هو رسول الله صلى الله

[33] . المنافقون: 8.

عليه وآله وسلم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾[34]. أكل الطعام، كناية عن مقتضيات الطبيعة، والمشي في الأسواق كناية عن مظاهر الافتقار. كأنهم يقولون، من يستحق أن يكون رسولا ينبغي أن يكون ربّا في الظاهر. وما علموا أن الدنيا، ليست موطن ظهور سلطان أهل الله، بل موطنه الآخرة. فظنوا أوصاف البشرية من دلائل النقص في العبد المخصوص؛ وهي على العكس من ذلك، من كماله لو علموا. فلما يئسوا من وجود ما يظنونه كمالا في مظهر البشرية، طلبوا أن يعضَّدوا بملَك يظهر للعموم، حتى يكون علامة صدقهم. وما قالوا هذا إلا لجزمهم، بأفضلية الملك على الرسول، وبسبب انحجابهم بالتنزيه، حسب ظنهم. وهو رجم بالغيب من قِبلهم، وحكم بالظن.

ومنهم من يحجب بالقرابة الدموية. فإن كان في ميزان القرابة أولى بالتقديم، انحجب بذلك عن خصوصية قريبه، وحُرم خيره. وهذا هو ما حجب أبا لهب عن نبوة ابن أخيه، عليه صلاة الله وسلامه، وعلى آله.

---

[34] . الفرقان: 7.

ومنهم من يحجب عنهم، إذا رآهم لا يشتغلون بالعلوم الكسبية، فينسبهم إلى الجهل، ويقول: لا يمكن أن يكون ولي الله جاهلا. وهو صادق في نصف مقولته، غير صادق في كلها. وذلك أن الله إذا اتخذ وليا علّمه. ولكن علمه وهبي، لا يحسنه كل أحد، وإن كان أعلم أهل زمانه. فالعلم موجود عند الوليّ، ولكن أين من يميّزه؟! ولا يمنعك من إدراك ما نقول، كون الولي أميا، لا يقرأ ولا يكتب. فإن الله إذا شاء أن يعلم عبدا من عباده، علمه من لدنه، من غير حاجة إلى سبب أو وسيلة. تعالى الله عن ذلك! وقد نبه سبحانه إلى جنس هذا العلم في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾[35]. وإياك أن تقول إن هذا مخصوص بعبد معيّن، فإن لله عبادا على هذه الشاكلة في كل زمان. وخزائن الله واسعة، يعطي في كل وقت عباده ما لا يخطر على بال الغافلين.

ومن الناس من يُحجب عن أهل زمانه، ببعض أهل الله السابقين. وهؤلاء يشبه حالهم حال أهل الكتاب، الذين ظلوا ينتسبون إلى شريعة منسوخة، مع وجود رسول معاصر لهم يدلهم على الحق. فقالوا نتشبث بالحق الذي معنا، وغفلوا عن الإذن الإلهي الذي قد يوجد أو يفقد، بحسب الزمان. بمعنى أنه ما

[35] . الكهف: 65.

كل حق يظل حقا! وهكذا، يتمسك بعض أهل الطرائق الصوفية، بشيخ (في زعمهم) رباني ولّى إلى ربه، ويعرضون عمن يعاصرهم من المرشدين، بل قد يؤذونهم؛ ولا يرون في ذلك تناقضا مع ما يدّعون. وهذا من عجيب الأمر.

ومن أهل الله من يحتجب بالتكسب. فيقول المخذول: لو كان هذا وليا لكان متوكلا، أو لكان الله يرزقه من غير سبب! وهو يجهل حال هذا الولي في باطنه.

ومنهم من يحتجب بشغل منصب سلطاني (الوظيفة العمومية اليوم). فيقول غير الموفَّق: لو كان هذا وليا، لفر من السلطان، كما كان يفر الأقدمون. وهو يجهل وجه الحكمة من مخالطة الولي للسلطان. وعلى كل حال فالتعميم، في مثل هذا لا يفيد.

ومن أهل الله من يحتجب بالمال إن كان من أغنياء زمانه. فيقول القائل: ما هكذا كان أهل الله، وهم من عُرفوا بالزهد في الدنيا. وهو لا يعلم حال ذلك العبد في الباطن. وكم من متزهد عابد للدنيا، وكم من غني ليس في قلبه غير ربه. والعبرة بالباطن.

ومن أهل الله من يحتجب، بأمراض الجسم، فتشمئز منه نفوس المتكبرين. ويقولون: لو كان لهذا قيمة عند الله، لرفع عنه هذا

البلاء. وما يدرون أن لأهل الله أحوالا مع ربهم لا تُعلم حكمتها لديهم.

وعلى العموم، قد ذكرنا لك أهم الحجب المانعة عن معرفة خواص العباد؛ أما استقصاؤها على سبيل التفصيل، فهو يخرج عن طاقة العبد. ومن اعتبر بما ذكرنا، فلعله يهتدي إلى عدم الوقوع فيها. والله الموفق وحده.

ولا بأس أن نذكر لك نموذجا من التابعين، شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأفضلية، حتى تستأنس به، وتجعله بين عينيك، عند التعامل مع أهل الله. ومع ذلك، نحذرك من أن تجعله ميزانا تقيس به أحوالهم. وذلك بسبب كون أحوالهم لا تنحصر في نموذج مخصوص. فلا ينفع معهم والله، إلا التسليم التام.

أويس القرني، رضي الله عنه:

عن أسير بن جبير قال: «كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: مِن مراد، ثم من قرن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول: يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد ثم من قرن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برّ. لو أقسم على الله لأبره! فإن استطعت أن يستغفر لك، فافعل. فاستغفر لي. فاستغفر له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي. قال: فلما كان من العام المقبل، حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس. قال: تركته رث البيت، قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (فأعاد عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم). فأتى (الرجل) أويسا، فقال: استغفر لي. قال أنت أحدث عهدا بسفر صالح فاستغفر لي. قال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لي. قال: لقيت عمر؟ قال نعم. فاستغفر له. ففطن له الناس، فانطلق على وجهه. قال أسير: وكسوته بردة. فكان كلما رآه إنسان، قال: من أين لأويس هذه البردة؟!»[36].

نستفيد من هذا الحديث ما يلي:

[36]. رواه مسلم.

ـ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لم تكن تربيته منحصرة فيمن يتصل به من الصحابة رضي الله عنهم اتصالا مباشرا.

ـ أن الصحابة، وإن كان لهم فضل الصحبة، فيمكن أن يكونوا مفضولين من وجه آخر. والتعميم في التفضيل، الذي ألفه الناس خلفا عن سلف، لا ينطبق على الأفراد على وجه التعيين، وإنما ينطبق على عموم القرن. أما الأفراد، فإنه من سوء الأدب مع الله ورسوله، القطع بكون المتأخرين ليس فيهم من يفضل الصحابة من وجه ما. فافهم ما ندلك عليه، تكن من العلماء الأدباء.

ـ أن أويسا رضي الله عنه كان يفضل عمر رضي الله عنه من وجه ما، وإلا لم يدله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه، ولم يرشده إلى طلب الاستغفار منه. وعمر هو من هو في الإسلام رضي الله عنه!

ـ أن استغفار أويس لعمر رضي الله عنهما، هو ائتمار بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإقرار بمكانته.

ـ أن العبد الذي لو أقسم على الله لأبره، عبد أعطي سر التكوين. فلا يغب عنك هذا!

ـ أن عدم رغبة أويس في أن يُعرف بين النـاس، عنـدما عُـرض عليه ذلك، يدل على أنه كان من المحجوبين عن العامة. وقد كان أغلب (وليس كل) أهل الله من هذا الصنف بسبب عـدم الحاجـة إليهم في الظاهر. وذلك أن عصر الصحابة رضي الله عنهم، وعـصر التابعين، كان الناس يستمدون فيهما عن بعضهم البعض، بسبب صفاء قلوبهم وتنورها بنور النبوة التي هم قريبـو عهـد بهـا. فهـم شيوخ وتلاميذ بعضهم. بخلاف الأزمنة المتأخرة، وعنـدما غفلـت القلوب وتوجه أكثرها إلى الدنيا؛ فقد صار الله يظهر بعـض أهلـه، حتى يعودوا بالناس إلى ما كان عليه الصحابة والتابعون. لهذا، لم يُعرف شيوخ التربيـة فـي الأزمنـة الأولـى، وعرفـوا فـي الأزمنـة المتأخرة بداية من مستهل القرن الثاني. فظن من لا علم لـه، أن ظهور الشيوخ اليوم، بدعة. وما هو بدعة، بل هو بـاب إلـى الـسنة الحق.

ـ أن أويسا، كان من الأفراد، بما أن سيدنا عمر كان غوث زمانـه بلا شك. والأفراد خارج دائرة القطب وقد يوجد فـيهم مـن يكـون أكثر علما بالله منه أحيانا، كما أشار إلى ذلك الشيخ الأكبر رضـي الله عنه. فإذا كان، فهو ختم زمانه من هذا الوجه.

ـ أن أهل اللـه ـ مـن أظهـره اللـه مـنهم، ومـن سـتر ـ كلهـم مستمدون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فهـم يـرون فـي بعـضهم نـوره صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم. أمـا الغـافلون، فيفاضلون بينهم عن جهل.

ـ أن الأدنى من أهل الله يخضع للأعلى من غيـر تكلـف، لأنهـم رضي الله عنهم برآء من الهوى.

ـ أن العامة لو كانوا يعلمون الخصوصية، لما حجبوا عن أويـس، حتى كانوا يحتقرونه ويؤذونه.

ـ أن الولي، لا يعلمه المرء إلا بإعلام من الله ورسوله، صلى اللـه عليه وآله وسلم. وأسباب ذلك متعددة: فإما برؤيا منامية، أو هاتف، أو حال قلبي، أو توجيه من ولي آخر أو غير ذلك...

ـ أن الولي المستور، لا يحب أن يتعرف عليه الناس. وقد يتخـذ في سبيل ذلك أسبابا، كما كان أويس يسأل الرجـل أن يـستغفر له. وكان يذكر له أنه حديث عهد بسفر صـالح (الحـج). يريـد أن يحجبه برؤية عمله عن رؤية خصوصيته هو. فلما لم يجد بدا، هام على وجهه من غير أن يعرف أحد وجهتـه. وقـد قيـل إنـه مـات شهيدا كأفراد الأجناد، رضي الله عنه.

الفصل الرابع
أصول السلوك

1. قصة موسى عليه السلام وفتاه:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾[37]. يريد موسى عليه السلام أن يعلِّم فتاه (مريده) غير ما كان يعلِّمه بني إسرائيل عموما، ويؤهله لأن يكون وارثه. وذلك أن ما كان يعلمه بني إسرائيل هو علم الشريعة، وما سيعلمه ليشوع هو علم الحقيقة. وهما معا منه عليه الصلاة والسلام. غير أنه لم يظهر في قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعلم الحقيقة، كما ظهر عيسى عليه السلام في قومه. فخاطب مريده من وجهه الشرعي الذي كان يعلمه، يدله على وجهه الحقيقي الذي يريد أن يوصله إليه. وقوله عليه الصلاة والسلام: لَآ أَبْرَحُ من "نظرته" في فتاه. وهي عناية منه ـ عليه السلام ـ به. وقوله: حَتَّىٰٓ

[37] . الكهف: 60.

أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أي فيك. يريد أن يجمع له بين العلمين اللذين هما بحران، بينهما برزخ لا يبغيان. فهو يريد له الكمال. وفي قوله عليه السلام: أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا تأكيد على عنايته بتلميذه، وإصراره على تكميله. وقد طوى سيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حكما جليلة في تربيته لفتاه، سنذكر منها ما يتعلق بموضوعنا بحسب ما ييسر الله. من ذلك، أن موسى هو صورة الفتى وأن السمكة المملوحة التي أخذها موسى زادا للطريق، إشارة إلى نفس المريد التي فقدت حياتها المعرفية بسبب غفلتها عن حقيقتها، ووقوعها تحت حكم العادة. وأخبره أنهما سيقصدان رجلا عنده من العلم ما ليس مع موسى (ظاهرا)، وأن هذا الرجل يوجد عند عين الحياة. يعني أنها معدن الحياة التي تظهر تجلياتها في الأحياء جميعا، كُلا على حسب مرتبته. وعين الحياة هي نفسها مجمع البحرين. وما هي إلا الحقيقة المحمدية. لكن لن يعلمها يشوع، إلا من مشكاة موسى عليه السلام. والحياة المقصودة هنا هي الحياة الأصلية، التي هي صفة الذات، فلا تحجبك الألفاظ عن المعاني المرادة. ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ ﴾[38]. التثنية في بَلَغَا ونَسِيَا هي من

[38] . الكهف: 61.

كون أن الشيخ يصاحب مريده في سلوكه بروحانيته، ومن دون هذه الصحبة، لا يتمكن المريد من السير أبدا. هذا، مع أن النسيان وقع من موسى وحده. وذلك النسيان مقصود من حقيقة موسى عليه السلام ومراد لها. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾[39]: فلما جاوزا المكان المقصود، سأل موسى عليه السلام، فتاه أن يخرج السمكة من أجل أن يتغذيا. وذكر أنه قد أصابه التعب من سفرهما هذا. يعني السفر الذي كان فيه مجاوزة للمكان (المكانة). ونستفيد من هذا أن الأمر الذي يكون فيه إذن الشيخ، يكون المريد فيه محمولا، لا يحس بتعبه؛ أما الذي يكون من غير إذنه فإنه يثقل عليه، بسبب غلبة الطبيعة، وظهور أحكامها. فالطبيعة سفلية. ثم نفهم أيضا أن المريد ينبغي أن يكون مع شيخه في صورة الخادم مع سيده. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾[40]: تذكر المريد السمكة، فإنه كان قد رآها تخرج من جرابه، وتلقي نفسها في البحر. وكان موضع مسيرها يبقى ظاهرا فيه، بعكس ما هو الماء عليه من

[39] . الكهف: 62.
[40] . الكهف: 63.

الصفات. فإن طبيعة الماء تقتضي أن لا يظهر فيه أثر. وذلك قول الله: فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا. وهو يشير إلى أن المريد يشعر بحياة قلبه شعورا لم يكن يعلمه من قبل، بل كان يظنه. فلما ذاق هذا الشعور، أصبح كأنه يحيى لأول مرة. أما حالته الأولى فكانت مندرجة في العادة، لا يستطيع فيها أن يميز شيئا. ونسيان الفتى ذكرَ أمرٍ عجيب كهذا، لا يكون عادة؛ لذلك نسبه إلى الشيطان، أي إلى قهر خارج عنه. وهذا يدل على أن الشيطان للمريد بالمرصاد في كل خطواته. وما تسلط الشيطان على يشوع إلا بإرادة موسى عليه السلام. فإياك أن تظن غير ذلك، فتكون من الجاهلين. نستخلص من هذا، أن الشيخ، قد يُدخل مريده في ابتلاءات، يريده أن يذوق من خلالها مقامات السلوك، ويكون له اتصال فيها بمختلف العوامل المؤثرة فيها، كالشيطان وغيره. ولا يحجبنك ما ننسبه من صفات وأفعال إلى موسى عليه السلام، ومن خلاله إلى الشيخ الرباني، فتقول أنت تنسب إليه ما هو من شؤون الله وحده، كما يقول من لا علم له؛ وتذَكّر أمر الخلافة الإلهية، والوراثة اللتين نبهناك إليهما. فما ذكرناهما لك هناك، إلا لتفهم كلامنا هنا. فتفطن! ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾[41]: قال موسى عليه السلام لفتاه: ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ أي هو ما كنا نريد. من هنا يتبين لك أن كل شيء كان مقصودا له عليه السلام. وهو قد كان يريد أن يرى تلميذه في عين الحياة. فالمريد إذا التقى شيخه (الذي هو عين حياته) فإن أول ما يحدث له معه، الشعور بحياة قلبه، بعد أن لم يكن له علم بها. وهذا الذوق هو الذي يجعل المريد يعرف شيخه المعرفة التي تليق بالبداية. فلما استخلصا الحكمة من عدم تجاوز الموضع، عادا على أثرهما، حتى يظفرا بالمقصود. وفي عودتهما كانا يحرصان على المرور من نفس مكان مرورهما الأول، حتى لا يفوتهما الأمر. من هنا يظهر أن شدة الحرص، من صفات المريد الموفق، حتى لا يدخل عليه ما يفسد عليه سلوكه. ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾[42]: العبد هنا هو الخضر عليه السلام. وهو صورة باطن موسى عليه السلام، التي انطلق بفتاه حتى يريه إياها. وسمي خضرا من الخضرة، التي هي علامة الحياة. فسلوك الفتى (المريد)، هو سلوك في موسى عليه السلام (الشيخ)، كما نبهنا إلى ذلك مرارا. من صفات هذا العبد، أن الله

---

41 . الكهف: 64.
42 . الكهف: 65.

آتاه رحمة من عنده، وهي رحمة الاختصاص بالخلافة (الغيبية، لأن موسى عليه السلام، لم يكن له الحكم في الظاهر)؛ وعلَّمَه من لدنه علما، وهو العلم الذاتي. ذكر هذا الصنف من العلم، في مقابل علم الشريعة الذي يأتيه به الملك المكلف بالوحي. يريد موسى لفتاه أن يعلم شرف النسبة إلى الحق التي هي العبودية الحق عندنا، وهي باطن معنى العبودية عند غيرنا. ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ ﴾[43]: موسى الحقيقة، خاطبه موسى الشريعة، فسأله أن يتبعه من أجل أن يعلمه ما يصير به راشدا. هذا أسلوب تعليمي من موسى عليه السلام لفتاه، يتكلم بلسان حاله، فيكون له قدوة في التعلم. وذلك لأن الموطن جديد على الفتى، وهو لم يلتق باطن موسى من قبل، حتى يعلم ما يقول أو ما يفعل، فيأمن الوقوع في الزلل. فأول شيء يجب على المريد تجاه شيخه، بعد أن يعرف علامة الإحياء لقلبه منه، هو أن يسأله بباطنه قبل ظاهره، أن يقبله عنده تلميذا، حتى يتعلم منه ما يصبح به رجلا في عرف أهل الطريق. ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ ﴾[44]: أجاب إمام الباطن

[43] . الكهف: 66.
[44] . الكهف: 67 - 68.

مريده بأنه لن يستطيع معه صبرا. وهذا من واجبه، حتى يبرئ ذمته. وأخبره عن سبب عدم صبره، وذلك أن ما سيعرض له من الآن فصاعدا معه، سيكون من منطلقات جديدة عليه، لا علم له بها. والمرء يصعب عليه قبول ما لا يعلم له وجه حق عنده. هذا مما اعتاده الناس في معيشتهم وتدينهم الظاهري، منذ وعَوا على أنفسهم. وما ترسخ بفعل العادة والتكرار، لا يزول بمجرد التنبيه. ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ ﴾[45]: يتعهد موسى الذي هو باطن الفتى/المريد بأن يصبر، وأن لا يعصي أمرا لإمامه وإن وقع ما وقع. وهو يتوكل على الله في اتباعه لشيخه، بدليل استثنائه في الكلام. وهذا أدب مطلوب من المريد، فإنه لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في الطريق إلا بتوفيق الله وتسديده. هذا ما لا نحتاج فيه إلى بيان، ومما نبه عليه الشرع. ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ ﴾[46]: يبين الشيخ للمريد شروط الاتباع، وأساسها التسليم التام، وخرس النفس عن الحديث في الباطن. ويتجلى هذا الأمر في عدم سؤال الشيخ عن شيء يفعله أمام ناظره مهما يكن؛ حتى يكون هو

[45] . الكهف: 69.
[46] . الكهف: 70.

الذي يفاتح مريده فيه. وذلك أن طريق التحقيق، لا تشبه الطريق المعتادة في كسب العلوم. ففي الطريق المعتادة يكون السؤال مفتاحا للتعلم، بخلاف طريق الخصوص، فإنه يكون حجابا عن العلم، وسوء أدب مع المعلم. هذا هو الأصل. وكل سؤال يقبله الشيخ من المريد، ويجيبه عنه، فليعلم المريد أنه من مقدمات الطريق لا منها حقيقة. أما السلوك الحقيقي فلا يكون إلا بشرطه. وليعلم المريد أن العلم الذي يحصله من شيخه بطريق السؤال المعتاد، هو علم مجرد لا يعتد به. نقصد في بدايته، أما فيما بعد، فمن العلوم ما يأخذها المريد عن شيخه مشافهة. وإنما يفعل الشيوخ ذلك في البداية تنزلا للمريدين، وإيناسا لهم، بحيث يطمئنون عندما يرون ما لا يفهمون، ويقولون لأنفسهم: هذا مما حذرنا منه شيخنا ونبهنا إليه؛ فلا يعترضون على الحق فيه. وكل مريد هذه صفته، فما هو مريد حقيقة. بمعنى أن إرادته لم تكمل بعد. فانظر يا أخي عزة الطريق، وانظر كيف يجترئ عليها اليوم من ليس أهلا أن يكون من تلامذة مريديها. ويدّعون فيها السبق، وما عُدّوا عند الله ممن اغبرّت أقدامهم من ثراها. نسأل الله العافية!

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾[47]: بدأ السير الفعلي. وعبر عنه الكتاب العزيز بـ فَٱنطَلَقَا. الانطلاق هنا إلى الحق، فلا يغب عنك. وهو معنوي وإن ظهر في صورة محسوسة. والأمر الآن بين الإمام والمأموم، فحافظ على وضوح الصورة لديك، حتى يحققك الحق بالانطلاق في نفسك. ركوب السفينة منهما، هو دخول روحانية الشيخ مع المريد في تدبير نفسه غيبا. وخرق الشيخ لها: هو إتيانه فيها ما لا يوافق أحكام الشرع المعلومة للمريد، التي اكتسبها من عند الفقهاء. وإنكار المريد لما يجده من نفسه، أثناء سيره، هو من صدقه مع ربه، وإيمانِه بأن أمر الله لا ينبغي مخالفته. فإن وقع فيها (أي المخالفة)، فلا بد من أن يعتبر ذلك معصية. وذلك هو قوله: لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا. الكلام هنا بين المريد ونفسه. والإمر: هو الأمر الذي لا يجد العاقل بدا من إنكاره بشدة. ولولا إنكار المنكَر في نفسه (أي في نفس المريد)، لخرج إلى دائرة الفسوق والكفر. واعتبار المعصية معصية، يؤهله للتوبة المشروعة. فالمريد يعلم كل هذا، لذلك لا يستطيع أن لا يتحرك باطنه بالإنكار. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن

[47] . الكهف: 71.

﴿ تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ٧٢ ﴾[48]: ذكّره إمامه من باطنه، بعهده الذي قطعه على نفسه، قبل أن يبدأ مسيره. وعلم أن المقصود بما ليس له به علم في سابق الكلام، هو ما يراه الآن. فتاب، وعلم أنه وقع فيما أخبره به إمامه، ولم يتجاوز ما ذكره له من حاله. فازدادت مكانته علوا في باطنه. ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ ﴾[49]. اعترف بنسيانه العهد، وسأل الإقالة. وتنبه إلى أنه من المحتمل أن يتكرر معه ذلك في المستقبل. فطلب أن لا يحمله إمامه ما لا يطيق. وهذا من شدة نباهته وفطنته! ولتعلم أن المريد ينبغي أن يتوفر له من الاستعداد فوق ما يكون لدى غيره من الناس، من كل صفة حميدة. ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسَۢا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ ﴾[50]: انطلقا من جديد، في مرحلة جديدة، فوجدا غلام الإيمان العقدي، فقتله الإمام. والغلام هو الشاب. ونسب الإيمان هنا إلى الشباب، لأنه يتجاوز الحد بسبب غُلمته؛ فيتكلف التعلق بما ليس من طوره. كما يفعل أولئك الذين يتكلمون في الذات والصفات والأفعال، من أهل

---

[48] . الكهف: 72.
[49] . الكهف: 73.
[50] . الكهف: 74.

العقائد. والإيمان المبني على العقائد المعروفة لدى العامة، يتجاوز فيه صاحبه كثيرا، بسبب كونه على غير بيّنة فيه. ويظهر هذا التجاوز جليّا في تأويل الكلام، وإخراجه عن سياقه، من أجل موافقة العرف. فلما قتل الشيخ هذا الإيمان، بقطع أسباب حياته الطبيعية ـ التي تعتمد في الأساس على التقليد ـ وأحس المريد بالفراغ القلبي؛ ظن أن هذا هو الشرّ بعينه. فإيمانه ـ حسب زعمه ـ كان عنده سبب خير، فلا يمكن أن يكون في إعدامه خير أبدا. ولم يشك في أن ما ارتكبه الشيخ، هو جريمة من الكبائر. فأنكر عليه كما أنكر سابقا. ووقع من حيث لا يدري فيما عاهد على أن لا يأتيه، مرتين. فذكّره الشيخ مرة أخرى بما التزم به: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[51]: فعلم المريد سوء حاله، وأنه لا يستطيع أن يدّعي أهلية السلوك. ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾[52]: أنصف من نفسه، وطلب من شيخه، إن هو بدر منه إنكار مرة أخرى، فليس عليه إن فارقه. وهذا الحال، وإن كان المريد لا يعلم حقيقته، هو علامة خير له. وهو الذي يؤهله إلى بلوغ النهاية. ومن هنا قال القائل: لا تُنال

[51] . الكهف: 75.
[52] . الكهف: 76.

المعرفة إلا بالزهد فيها. يقصد، حتى لا يرى نفسه أهلا لها، ويستحيَ من طلبها. ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾[53]: انطلق المريد مصحوبا بروحانية الشيخ، فوجدا أهل قرية المعاني، فاستطعما أهلها. والاستطعام من المريد سؤالهم إمداده بما عندهم. فأبوا أن يضيفوهما، لأن المريد ليس مؤهلا بعد للخوض في المعاني، بسبب وقوعه تحت تحكم الحِس، ولو بقدر ما. فوجدا فيها جدارا يمنع المعاني من الخروج إلى الحس، يريد أن ينقض، بسبب اجتراء المريد وتكلفه. فأقامه الشيخ حتى يحفظ مريده من المخالفة للأصول، والوقوع في حبائل الوهم. فإن المعاني إن بوشرت قبل الأوان، انقلبت وهما. ولكن المريد مرة أخرى لم يصبر، وأنكر على شيخه العمل بالأوْلى، بحسب ما أعطاه قياسه الفكري. ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ ﴾[54]. ما قرر الشيخ، إلا ما حكم به المريد على نفسه. وهذا يدخل ضمن ما أسسه الحديث

[53] . الكهف: 77.
[54] . الكهف: 78.

القدسي: « أنا عند ظن عبدي بي...»[55]. وقول الشيخ: قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ إيذان بانتهاء صحبة روحانية الشيخ للمريد، ودخوله في مرحلة جديدة من السلوك، التي هي في الحقيقة السلوك بالمعنى الخاص. فالسلوك الأول كان فيه المريد مباينا لشيخه بحقيقته؛ أما هذا السلوك الذي هو مقبل عليه الآن، فسيكون سلوكا له بشيخه مع غياب نفسه. ولا يكون هذا حتى يحصل له الفناء في الشيخ. ومع انتهاء السلوك الأول، ارتأى الشيخ أن يفهمه ما غاب عنه فيه، حتى لا يجاوزه، إلا وهو يعلم الحكمة منه. وهذا من التكميل العلمي، الذي يؤهل المريد أن يصبح شيخا فيما بعدُ. وهو ما عنيناه بالوراثة. ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٖ غَصۡبٗا ٧٩ ﴾[56]: السفينة هي القلب، وقد كان لمساكين يعملون في البحر. المساكين العاملون هم الجوارح، يعملون في بحر الشريعة، يصطادون منه سمك العلم والأجر. والملك الغاصب هو الهوى. فكان خرق الشيخ للسفينة ـ الذي هو إلحاق النقص والعيب بها ـ إنقاذا لها منه. وذلك لأن الهوى لا يرضى بغير الكمال في الظاهر،

[55] . من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة، والدارمي بزيادة: فليظن بي ما شاء.
[56] . الكهف: 79.

وإن كان لا علم له بالكمال الحقيقي. وهذا من سياسة النفوس، التي لا يعلمها إلا الخبراء.

فالعمل بالشريعة، يظنه الناس سهلا. وتجد من لا علم له، يسارع في العمل بالنوافل، ويجد لذلك خفة ونشاطا؛ ويظن المسكين أن ذلك من التوفيق. ولو استجلى الأمر لدى شيخ رباني، لبيّن له أن عمله كان بهواه، لا ائتمارا بالشرع. والخفة التي كان يجدها، هي من لذة النفس، لا بسبب التوفيق. أما العمل الشرعي مع وجود النفس، فلا لذة فيه، بل كله مرارة. وستجد من كان يظن نفسه من خواص العباد ـ عند ذهاب الحظوظ ـ يأتي بالفرض بمشقة كبيرة. لكن عمله وقتذاك سيكون لله، وسيعطيه ثمرته بإذن الله. من هنا جعل الشيوخ معيار وجود الإخلاص في العمل، ثقله على النفس. فتنبه لما نقول لك، ولا تكتف بكلام الفقهاء الذين لا يرعون إلا صورة الأعمال، وهم لا خبر لهم عن أرواحها.

ثم يوضح له ما كان منطويا في الأمر الثاني، الذي هو قتل الغلام، فيقول الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾[57]: الغلام الذي هو الإيمان المقيد بالعقائد، هو ابن للروح

[57] . الكهف: 80 - 81.

من حيث كونه إيمانا، وابن للفكر من حيث كونه تعقلا. والأبوان في أصلهما مؤمنان إيمانا جبِلّيّا، فلا إنكار عليهما لذاتهما؛ وإنما جاءهما الإنكار، بسبب ابنهما الذي أدخل عليهما الشوائب. وهو ما سماه الخضر عليه السلام: طغيانا وكفرا. فالطغيان مجاوزة حد الإيمان الفطري؛ والكفر، مخالفته بما يعطي الفكر. وحروف "الفكر" هي نفس حروف "الكفر" إن كنت ممن يتبع العلامات. فتيقظ لما ننبهك إليه!

أما قوله:فَأَرَدْنَآ، فيفيد أن الإرادة للحق وله، في نفس الآن. وهذا الخطاب لا يكون إلا من المتحققين بالحق. ونون الجمع، هنا هي نون الجمع على الحق بالحق، وليست نون العظمة كما يظنه الجاهلون، الذين يقيسون كلام أهل الله على كلام اللغويين. فكلام أهل الله فيه أسرار لا يعلمها غيرهم. وما نقوله يدل عليه ورود لفظ رَبُّهُمَا فيما بعد بصيغة الإفراد. والإيمان الذي أراد ربهما أن يبدلهما، هو الإيمان الأصلي، الذي هو التصديق بما جاء من عند الله، دون تصرف فكري. وهو خير زكاة: صفاء ونماء؛ وأقرب رحما: رحِما، لمشابهته والديه، وانتسابه لحقيقتهما.

ثم يردف بتوضيح الأمر الثالث: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[58]: وأما الجدار، الذي يفصل المعاني عن المحسوسات، فكان لغلامين، أي من أجل حفظ غلامين. يتيمين، لأنهما انفصلا عن أبيهما الذي هو الروح المجرد. وسميا غلامين، لأنهما حديثا عهد، ولأنهما ولدين (من الولادة). والغلامان هنا هما: الكشف العلمي، والكشف الخيالي. والكنز الذي لهما تحت الجدار، هو المعاني المجردة. وفي التعبير بـ"التحت"، إشارة إلى كون المعاني مركوزة في النفس، بعكس ما يتوهم الغافلون من كونها خارجة عنها. وأبوهما الصالح، هو الروح المجرد كما ذكرنا من قبل، وهو صاحب الكنز الأصلي. فَأَرَادَ رَبُّكَ: أي،مربيك، الذي ليس إلا شيخك، أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا بالتمكين في حفظ المعاني، وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ، بإتقان الاستنباط والتأويل. كل هذا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ : أي أن بناء الجدار كان رحمة، لا منعا. وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى من كوني خضرا، وإنما فعلته من كوني مظهرا لربوبية ربك! فلا تحجب عن الحق، بما تعلمه من العادة أو العرف. ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا: أي هذا هو الحق الذي لم تستطع

[58] . الكهف: 82.

استساغته، بسبب كونك صغيرا في ميزان الطريق، كالطفل الـذي لا يتمكن من هضم طعام البالغين. فاعلم مقامـك، واعمـل عليـه، تكن من الأدباء.

ما ذكرناه، لا يتعارض مع ما جاء في الحديث من بـاب الإشـارة، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسـلم: « أن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال أنا [الجواب كان من جانب الشريعة]. فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه. [العتَب كان مـن جهـة الحقيقـة. وهـذا مـن أثـر التجلي. والعلم يتحرك مع التجلي. فهذا مـن "الحركـة العلميـة"، التي من لم يكن له علم بها، فلن يفهم كلام اللـه علـى حقيقتـه أبدا]. فقال له: بلى! لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك[يقصد موسى الولاية، لا موسى الرسالة]. قال أي رب ومن لي به؟ وربمـا قال سفيان: أي رب وكيف لي بـه؟ [أي كيـف أصـل إليـه مـن الشريعة] قال تأخذ حوتا فتجعله في مِكْتَل [الحوت في المكتل، صورة النفس في الحجاب]. حيثما فقدت الحوت فهـو ثَـم. وربمـا قال: فهو ثَمه. وأخذ حوتا فجعله في مكتل، ثم انطلق هـو وفتـاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما. فرقد موسى [ليقع المقدور، فلولا رقوده ما كان التجاوز ليكون. فهـذا كنـسيان

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليسُن] واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر. ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾. فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق. فقال: هكذا مثل الطاق. فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا كان من الغد، ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله. قال له فتاه: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ فكان للحوت سربا ولهما عجبا. قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب [مستور من أهل الغيب]. فسلم موسى، فرد عليه. فقال: وأنى بأرضك السلام! [أرض الشريعة، مجال شجار الأسماء، فلا سلام فيها؛ بينما أرض الحقيقة تنتفي فيها الأضداد، فهي أرض السلام]قال: أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. أتيتك لتعلمني ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾. قال: يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه [وهو علم الحقائق]، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه [وهو علم الشرائع. ولكل من العلمين

أحكام تتعلق بمجالها. فالحقائق للباطن، والشرائع للظاهر]. قال هل أتبعك؟ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر [حتى يحصّل العلمين، فالجمع لهما لا يكون إلا للبرازخ المكنى عنها بالساحل]، فمرت بهما سفينة كلموهم أن يحملوهم [السفينة كناية عن القلب وجُباته من الجوارح كما أسلفنا. وحملهم هو عملهم. فعملهم لموسى كان بأجر، وللخضر هو بغير أجر. وذلك لأن المعمول له (المحمول)، فرق بين أن يكون خليفة، أو نائبا عنه. فالخليفة له الطاعة بالقهر، والنائب قد يطاع وقد يعصى. والاختيار هو مناط الأجر]. فعرفوا الخضر [الخليفة الموسوي] فحملوه بغير نول. فلما ركبا في السفينة، جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين [إشارة إلى العلمين]. قال له الخضر: يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر [يشير عليه السلام أن علميهما المتباينين، هما علم الحق غير المتعدد؛ لكن مع تمييز المطلق عن المقيد.

وذلك أن العبد لا يحصل له من علم الله إلا ما يحمله استعداده]. إذ أخذ الفأس فنزع لوحا. قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدوم. فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها؟ [التعارض الظاهر بين العلمين، لا يكون إلا قبل الفتح. وأما بعده فيجدهما واحدا] ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾. فكانت الأولى من موسى نسيانا. فلما خرجا من البحر، مروا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده، هكذا.. وأومأ سفيان بأطراف أصابعه، كأنه يقطف شيئا. فقال له موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾: مائلا. أومأ بيده هكذا.. وأشار سفيان كأنه يمسح شيئا إلى فوق. فلم أسمع سفيان يذكر مائلا إلا مرة. قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، عمدت إلى حائطهم؟ ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإنباء بالتأويل هو الفتح]. قال النبي

صلى الله عليه وسلم: وددنا أن موسى كان صبر، فقص الله علينا من خبرهم [الإشارة هنا، إلى ما يفتح الله به على عبده من أسرار. ولكن الله لم يشأ أن يُطلع على ذلك كل أحد. فلو صبر موسى لظهرت أسرار مكتومة]. قال سفيان: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى! لو كان صبر لقص علينا من أمرهما. وقرأ ابن عباس أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين »[59].

إذا علمت المقصود من موسى ومن الفتى ومن الخضر، فإنك ستجد المعاني متطابقة؛ لكن من حيث التأويل كما قد ذكرنا. نقول هذا حتى لا ندخل البلبلة على أذهان الناس فيما نعرض عليهم. فإن لكل مقام مقالا، يناسبه ويكون من أسباب حفظه.

2. خلاصات:

من الأمور التي يمكن للمرء استخلاصها من القصة السالفة ما يلي:

ا ـ الحكمة من ورود هذه القصة ومثيلاتها في القرآن، والسنة:

[59] . أخرجه البخاري ومسلم. واللفظ للبخاري.

يقرأ الناس هذه القصة، أو مثيلاتها من القرآن الكريم، وكأنها للإخبار التاريخي فحسب. خصوصا إذا وجدوها تتعلق بسيدنا موسى عليه السلام. يظنون أنها لا تعنينا ـ نحن المحمديين ـ في شيء. ونسوا أن الله المتكلم بها حكيم، ما حكاها لنا، إلا لأن لها قيمة علمية وتربوية بالإضافة إلى قيمتها التاريخية. تهمنا أحداثها وتفاصيلها كما أهمت فتى موسى عليه السلام، أو أكثر. وقولنا أو أكثر، هو بسبب كون ما ظهر من موسى عليه السلام، هو بالأصالة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم. فنحن أحق بهذه المعاني من غيرنا إن عقلنا. ومن هنا أيضا تكون شهادتنا على الأمم السابقة.

وعندما ينبه الله إلى كون بعض العباد، تكون معاملاتهم غير شرعية في ظاهر الأمر، بينما هم يتصرفون عن أمر إلهي، فإنما يُعلمنا أن فهمنا للشريعة، لا ينبغي أن نجعله حَكما على من هو أعلى منا في المقام إلا بدليل؛ ويعلمنا، أن العمل بأمر الله الخاص، هو شرع عند المقربين من العباد. هل يكون الأمر الإلهي الذي نأخذه عن الله بواسطة الرسل عليهم السلام والملك المكلف بالوحي شرعا، ولا يكون ذاك الأمر الذي نأخذه عن الله من غير واسطة، كذلك؟! لا والله! وإياك أن تقول: وأين مثل الخضر من

الناس؟ فتنبئ عـن جهلـك وضـعف إيمانـك! ألا تعلـم أن اللـه لا يخاطبنا، إلا بما هو ممكن في حقنا؟! سواء من حيثما نحن أفراد، أو من حيثما نحن جماعة؛ وإلا كان كلام الله لغوا، تعالى الله عما يظن الجاهلون.

ب ـ ضرورة الشيخ في طريق التربية:

يشيع في العامة اليوم ـ خصوصا من يزعمون التمـسك بالكتـاب والسنة ـ أن اتخاذ الشيخ في طريق تكميل الإيمان، هو من البدع المستحدثة في الدين. وقالوا أن اتخاذ الشيخ هو مـن الـشرك، أو من أسبابه. وأنت قد رأيت معنا، بعض ما يزخر به الكتاب، وتزخر به السنة من الدلالات على مرتبة المشيخة (التي قد تكون نبوية أصلية أو وراثية) بما لا يتطرق إليه الشك. ونحن نقول ـ عن علم، لا عن ظن ـ : إن أولئك المساكين الذين يدّعون لأنفسهم خالص التوحيد، ليس لهم من التوحيد إلا بعض ظاهره، ممزوجا بالشرك الذي يليق بمقامهم. ولو أنهم لزموا مكانتهم، ولم يقعوا فـي سـوء الأدب مع عباد "الله"، لكانوا على خيـر؛ ولكـنهم تطـاولوا، وأرادوا إلزام غيرهم بما يظنون. فدخلت عليهم الظلمة، وتعرضـوا لغـضب الله ومقته، إلا أن يتوب الله!

والعجب، أنهم لا ينكرون المشيخة إلا في مجال الإيمان، الـذي هو قطب حياة الإنسان الحقيقية؛ ويسلمون بها فيما عداه. وكأنهم لا يريدون إلا هلاك العباد الأبدي، أو علـى الأقـل حرمـانهم مـن الدرجات العُلى؛ خلافةً إبليسية! ولو أنصفوا، لكان إنكار المـشيخة في باقي المجالات، أولى، بـسبب كونهـا فرعيـة أو لا قيمـة لهـا بالمقارنة إلى الإيمان. هذا إن كـان للإيمـان قـدر عنـدهم، كمـا يزعمون.

ولتعلمَ ضرورة الشيخ في التزكية، انظر يا أخي، إلى علماء الشرع الذين لم يكن لهم حظ منها، تجد صفات الربوبية ظاهرة علـيهم. فويل لك إن لقيتهم ولم تقبـل أيـديهم الكريمـة؛ وويـل، إن لـم تعاملهم على أنهم المرجع الأوحد في العلم؛ وويـل ثـم ويـل، إن قلت رأيك أمامهم وكان مخالفا لرأيهم؛ وكأن المسلم أجنبي عـن دينه، لا يجوز له أن يتكلم فيه! ربوبيـة علـى المستـضعفين مـن جانب، وعبودية للظالمين، يفـصّلون فيهـا الفتـاوى علـى مقـاس الطالبين. يلبسون على الناس دينهم، حتى أصبحوا يجـدون فـي كل مسألة مختلف الأقوال. فمن جواز إلى حِرمة! ما عليـك إلا أن تختار حسب ما تشتهي.

وطائفة أخرى، أنكرت وجود الشيخ الرباني، وهي تنتسب إلى التصوف. نعم! يقولون: ذهب زمان الربانيين، ولم يبق إلا لزوم للسنّة، وتبرك بنسبةٍ إلى شيخ كان ربانيا في زمنه، أو إلى آخر. ونسوا أن الصحبة سنة. بل هي قلب السنة! ونسوا أن الربانيين، لا يخلو منهم زمان؛ وأن القصور من أنفسهم التي لم تشتق إلى لقاء ربها، واكتفت دونه بسماع لذيذ الألحان، أو بلَوْك كلام لا يفقهون معانيَه. فجعلوا طريق قوم سلكوا ووصلوا، منزلا لكل عاطل أو متلاعب.

لذلك، فمن أراد أن يشارك السّلف في علومهم وفي مراتبهم، فليبحث عن شيخ يدله على الله به، ولا يتوان. فالعمر في تناقص، وليس للمرء إلا ما حصل في الدنيا. فإنها دار العمل: القلبي والقالبي. ونحن في زمن العولمة، لسنا كمن سبقنا. فإن كان الشيخ الرباني متواجدا في الصين، فيمكنك أن تتصل به يوميا من بيتك، بما يسّر الله من أسباب تقانية، لا تنفك تتطور يوما عن يوم. فإن كان لبعض الأقدمين، بعض عذر، فلا عذر اليوم!

ج ـ سير المريد:

يتضح مما سبق أن الشيخ الرباني، ليس كغيره من الناس. فأول ما يميزه، روحانيته التي تصحب المريد حيثما حل وارتحل.

توضح له ما خفي عنه، وتجيبه عما يحيك في باطنه، ولا يستطيع أن يسأل عنه؛ إما لتعذر السؤال، أو لاستعظام المسؤول عنه. وإذا لم يكن الشيخ بهذه الصفة، فكيف سيتمكن من تربية آلاف المريدين، المتوزعين على كل أصقاع الأرض! وكيف سيحول بينهم وبين الوقوع في حبائل الشيطان هناك!

أول ما يهدم الشيخ من بناء المريد الباطل، عادة العبادة. بمعنى أنه يجعله يعبد الله عبادة حية (معاملة) لا ميتة، تتعاقب صورها في الأزمان، وهي لا حقيقة لها. ويكسر له الاعتداد باتباع الشرع الذي يتوهمه، بالوقوع في المخالفات، ليعلم ـ عن ذوق ـ بعد ذلك، أن الفعل كله لله.

ثم يفعل معه نفس الشيء بالنسبة إلى الصفات. فيجعله يميز بين الصفات الوجودية، والصفات العدمية (السلوب)، ويعلم نسبة الظاهر إلى المظاهر. فإذا انمحقت صفاته في صفات سيده، صار يعلم ـ عن ذوق ـ أنه ما ظهر في الوجود إلا صفات الحق.

ثم يتدرج معه، حتى يعيده إلى حكمه الأصلي، الذي هو العدم، فيبقى بلا هو. ويعلم أن ما كان يظنه له من أحكام العدم، ما هو له؛ وإنما كل شيء هو لله على التحقيق.

واعلم أن سير المريد في البداية يكون بالنفس، ثم يكون بالشيخ. هذا فيمايتعلق بالسلوك الأول؛ أما فيما يعود إلى السلوك الثاني، فإنه يكون بحقيقته، ثم بحقيقة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا أعلى ما يمكن أن يطمح إليه مخلوق! وقد ميزنا بين حقيقته والحقيقة المحمدية بسبب التراتب العلمي فحسب، وإلا فالحقيقة واحدة.

إذا فهمت ما نقول، علمت أن الشطحات التي نطق بها أهل الله، لم تكن إلا حقا. وعلمت من كلام المتكلم، من أي مقام يتكلم. وظفرت بعلم نفيس، تخرج به من دائرة المحجوبين المقلدين. فمثلا: من قال: أنا الحق، فقد كان نطقه من باطن الحقيقة المحمدية؛ ومن قال: أنا مظهر رباني، فقد نطق من ظاهرها، وهكذا مع كل قول.

نريد أن نقول: إن الولي إذا بلغ النهاية في الترقي، يكون مطلقا في التنقل بين المكانات (المقامات)، بداية من نفسه وانتهاء إلى الحق، بحسب الأحوال التي هي عين الشؤون الإلهية. وإشارة إلى ما نقول هنا، قال القائل: "إذا كنا به تهنا على الوجود، وإذا كنا بأنفسنا، عطل ذلنا ذل اليهود". ولو تتبعت أحوال التحقيق التي نشير لك إليها، وكنت من أهل الإشارة، لوجدت في كلام الأنبياء

عليهم السلام، مما حكاه الله لنا في كتابه، كنوزا من العلم لا يعثر عليها إلا الغواصون؛ ولوجدت في كلام أهل الله من الورثة الدر المكنون؛ وعلمت مقام كل واحد في وقت كلامه. وعلمت بعض الوجوه التي يكون فيها الكلام مخبرا عن المتكلم، وإن قصد به غيره. وهو من غريب العلم.

د ـ شروط انتفاع المريد من شيخه:

ليس كل من يخالط الشيوخ يستفيد، وليس كل مستفيد سالك، وليس كل السالكين على درجة واحدة.

أولا: ينبغي أن تعلم أن لكل شيخ دائرتين: دائرة تبرك، ودائرة سلوك. فدائرة التبرك عامة، ودائرة السلوك خاصة.

دائرة التبرك يدخلها كل من اعتقد الشيخ، وأحبه وأخذ ورده. وينال بها الحماية الغيبية، والأجر، والسعادة في المآل بإذن الله. كما ينال شفاعة الشيخ في الدنيا والآخرة. أما دائرة السلوك، فلا يدخلها إلا المؤهلون من المريدين، الذين نخاطبهم في كتبنا ونذكر شروطهم. وهؤلاء ينالون التدرج في مقامات السير، وينالون العلوم الخاصة، والنور الذي يزكي ذواتهم، حتى يصبحوا نورا. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه قال: « اللهم اجعل في قلبي نورا وفي

سمعي نورا وفي بصري نورا وعن يميني نـورا وعـن شـمالي نـورا وأمامي نورا وخلفي نورا وفوقي نورا وتحتي نورا واجعلني نورا »[60]

وشروط هؤلاء المريدين، حتى يقع لهم الانتفاع بالشيخ هي:

ـ الإسلام، الذي هو الانقياد مع الشيخ لله.

ـ اتباع الشرع في كل أمـر، ولا يكـون هـذا إلا بتحـصيل العلـم الضروري.

ـ التصديق الجازم بالشيخ. وهذا يتقوى مع التقـدم فـي الـسير. واعتقاد أن الشيخ هو وسيلته إلى الله.

ـ السمع والطاعة للشيخ في السّرّ والعلن.

ـ اتباع الشيخ، باعتماد طريق العزائم.

ـ مجالسة الشيخ، حتى يأخذ جسم المريد حظه من المدد، وإن كان هذا الشرط ليس عاما. فإن من أهل الله من يستمد من دون لقاء حسّي، كما حدث مع أويس القرني رضي الله عنه.

ـ الفناء في الشيخ، بحيث يكون المريد من الشيخ كقطرة المـاء من البحر.

ـ خدمة الشيخ، بحسب الوسع والاستطاعة من القوة والمال.

---

[60] . أخرجه مسلم.

ـ عدم الانتقال من مكان إلى مكان، أو من عمل إلى عمل، أو من حال إلى حال إلا بإذن الشيخ.

ـ مراجعة الشيخ فيما يرد على المريد من واردات، في صورة فهوم أو مشاهدات، حتى يمحصها له، ويدله على مكنوناتها.

ـ عدم مخالطة أهل الظلمة، وإن كانوا من الأقارب.

ـ اجتناب الدنيا وأهلها.

ـ الصدق في كل الأمور، صغيرها وكبيرها. وهو يتقوى مع التقدم في السير ومع تحصيل حال المراقبة.

ـ الاشتغال بما يخص المريد في نفسه، قبل النظر إلى غيره. فإن السلوك ذوق، والذوق وجدان، والوجدان يخص ولا يعمّ.

الفصل الخامس
الذكر

تحقيق الذكر هو المراد من سلوك الطريق. وقد قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾[61]، فجعل الذكر غاية الصلاة، التي هي صورة السلوك، كما بيّنّا في كتابنا "تحقيق معنى الصلاة". ولفظ "الذكر" يفيد استرجاع معنى نُسي بسبب غلبة مقتضيات الطبيعة على الإنسان. نفهم من هذا، أن هذا الذكر مركوز في الروح، بسبب نسبها الإلهي، حيث قال الله عنها: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[62]. فكان طول العهد بالنفخ الأول، سببا آخر لنسيان بني آدم للمعنى الأصلي. ومن أجل ذلك كان الله يبعث الرسل عليهم السلام مرة بعد مرة، ليعودوا بالناس إلى ذكر ما نسوه.

غير أن لفظ الذكر قد يطلق على معان هي مراتب له، منها: الذكر الوسيلة، والذكر الحال، والذكر الغاية.

---

[61] . طه: 14.
[62] . الحجر: 29.

1. أصناف الذكر:

ا ـ الذكر الوسيلة:

ونعني به الذكر اللفظي، أو ما يطلق عليه ذكر اللسان. وهذا الذكر نوعان: عام، وخاص.

فالعامّ هو كل ذكر ورد عن الله في القرآن، أو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في كتب السنن. فمِن الذي ورد ذكره في القرآن، قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾[63]، وقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾[64]، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾[65]، وقوله سبحانه: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾[66]، وغيره كثير. ومِن الذي ورد في السنة: فعن ثوبان رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام. قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله أستغفر الله»[67]. ومنه ما جاء عن ابن عباس رضي الله

---

[63] . هود: 3.
[64] . البقرة: 199.
[65] . آل عمران: 17.
[66] . الأعلى: 1.
[67] . أخرجه مسلم.

عنهما، عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها قالت: « أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليها وهي في المسجد تدعو. ثم مر بها قريبا من نصف النهار، فقال لها: ما زلت على حالك؟ قالت: نعم. قال: ألا أعلمك يعني كلمات تقولينهن؟: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله عدد خلقه. سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه. سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه. سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته»[68]. ومنه أيضا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»[69]. ومنه ما ورد عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: « قلت: يا نبي الله! إني امرأة قد كبرت وضعفت، فدلني على عمل. قال: كبري الله مائة مرة، واحمدي الله مائة مرة، وسبحي الله مائة مرة. فهو خير لك من مائة بدنة متقبلة، وخير من مائة فرس مسرج ملجم في سبيل الله، وخير من مائة رقبة متقبلة. وقول: لا إله إلا الله، لا يترك ذنبا ولا يشبهها

[68] . رواه النسائي، ومثله عند الترمذي وأحمد.
[69] . أخرجه الترمذي عن أبي هريرة.

عمل»[70]. ومنه أيضا الأذكار الخاصة بالأعمال والهيئات، كأذكار الطعام، وأذكار النوم، وأذكار الدخول إلى الأماكن والخروج منها، وغيرها... ونحن هنا إنما أشرنا إلى نماذج من هذه الأذكار، وإلا فهي كثيرة. ومن أراد الاطلاع عليها بتفصيل، فليبحث عنها في مظانها.

واعلم أن الذكر المسنون المعلوم عند الناس، هو ذكر عام. وذلك من كونه مشتملا على مدد غيبي عام، في متناول كل الاستعدادات. فهو كالحد الأدنى من المدد. وهو أيضا ـ في الغالب ـ ذكر أجر، أي يُقصد من ورائه الأجر والجزاء. فليس كل المسلمين يطلبون وجه الله، وإنما غاية العامة أن يطلبوا الجنة وما في معناها من الحظوظ العاجلة أو الآجلة. ومدد هذا الذكر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تغفل أصله!

وأما الذكر الخاص، فهو أيضا مدده من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد يكون لفظه نفس لفظ الذكر العام، ولكن نية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تختلف فيه. فإن كانت الغاية من الذكر الأول تحصيل الأجر مع الحد الأدنى من النور، فغاية الثاني تنوير الذات، حتى تحصل للذاكر معرفة ربه. والذكر الخاص،

[70] . رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

هو إما تلقين فردي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأحد أصحابه، أو هو تلقين وارثه لأحد المريدين. ورغم أن حديث علي عليه السلام، الذي يذكره أهل التصوف في كتبهم لم يثبت عند أهل الحديث، إلا أن ذلك لا يقدح في أصل التلقين الخاص.

ولا شك أن خواص الصحابة كانت لهم أوراد خاصة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سواء كانت ألفاظها عامة أم خاصة. وسنعود إن شاء الله إلى هذا التفصيل فيما بعد. فإن كانت، فلا بد أن كتب الحديث لا تتضمنها، وإلا كيف تكون خاصة مع إشاعتها في العموم. وما رأيت من نبه إلى هذا الأمر، سواء من علماء السنة، أو من أهل الله فيما أعلم.

ولنعد إلى تفصيل الذكر الخاص. فالذكر قد يكون خاصا من حيث اللفظ، كالذكر بأسماء الله الحسنى، وقد يكون من حيث النية والعدد، وإن كان اللفظ عاما. فمثلا ذكر "لا إله إلا الله" لا أعم منه، لكن يمكن أن يكون خاصا، بنية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو الشيخ بالتبع؛ كما يمكن أن يعود خاصا بالعدد. فمن يذكر "لا إله إلا الله" بضع مئات من المرات في اليوم، ليس كمن يذكرها بعشرات الآلاف. فالعدد القليل يبقي صاحبه ضمن عمومية الذكر، والعدد الكثير يدخله في دائرة الذكر الخاص.

وإن الناس ـ بسبب عدم ضبطهم لهذه الأصول ـ يدخل عليهم كثير من الضرر، وهم لا يدرون. ولكي نوضح الأمر، لا بد أولا أن نؤكد أن الذكر العام له مدد عام، والذكر الخاص له مدد خاص، يعيّنه الممِد. هذا مع الإذن: العام للعام، والخاص للخاص. أما إذا أخذ المرء الذكر الخاص من غير إذن خاص، عن الشيخ الرباني في زمن كزمننا، فإنه يأخذ الألفاظ من غير مدد، أي يأخذها فارغة. فإذا أخذها فارغة، من نفسه، أو كأن يكون قد اطلع عليها في أحد الكتب التي تضم أورادا خاصة لشيوخ سبقوا في الزمان، فإن الشيطان يمده فيها بمدده الظلماني، حتى يضله به شيئا فشيئا، بغية إخراجه في النهاية من الملة. وأصحاب هذا الذكر، كلما أكثروا منه، سارعوا في الضلال. والمساكين لا يشعرون بما هم فيه، لاستبعادهم أن يكون الذكر سببا للضرر. فالعامة لا يرون في الذكر إلا الخير، دون تمييز بين خاصه وعامه. والشيطان في إمداده لهذا الصنف، يجعل الذاكرين يشاهدون أمورا ، يوهمهم أنها من الغيب، ويجعلهم يسمعون أصواتا، يوهمهم أنها الهواتف التي يتكلم عنها أهل الله. فيزدادون انجرافا معه. وأما من يأخذ الذكر الخاص عن شيخ غير مأذون في تربية غيره، أو عن مدّع للمشيخة كذاب، فإنهم بالإضافة إلى ما أسلفنا من الشرور،

يستمدون الظلمة التي في باطن الشيخ المزعوم، ويستمدون صفاته الذميمة. فإن كان متكبرا، سرى الكبر إليهم، وإن كان محبا للمال، سرت هذه الصفة إليهم، وهكذا...وكل هذا يدخل في أسرار الاستمداد، التي يجهلها كثير من الناس.

وإن المستمدين للظلمة، من أصعب الناس علاجا. وذلك لأنهم يعتقدون أنهم على خير كما قلنا، ويكونون مغترين بما يبدو لهم أنهم يرونه من الغيوب. فإذا نصحت أحدهم بالتوقف عن ذلك الذكر وشككته فيه، يراك أقل منه مقاما، ولا يلتفت إلى ما تقول. وقد كلمت أحد هؤلاء يوما، ونصحته بترك الذكر، وقلت له: أنا أعلم أنك لن تستمع إلى نصيحتي. فأجابني ـ وقد شجعته بكلامي ـ أنا لا أرى إلا أنك تهذي، وتقول كلاما لا أساس له. والمستمدون للظلمة، تظهر عليهم أعراض مع ذكرهم. فيصبحون أقل طعاما من المعتاد، وأقل نوما. ويظهر أثر ذلك على أجسامهم، وعلى أعينهم بالخصوص. وقد يجرهم الحال إلى أن يصبحوا ممن يشتغل مع الشياطين، كبعض من يدعون علاج المس والسحر من الناس.

ثم إذا اشتغل الذاكر بالأسماء الإلهية من غير إذن، فقد يتعرض للأذى من الملائكة الذين يخدمون الاسم الذي يذكره. والناس

يظنون أن كل ما أرادوا فعله مباح لهم. ويظنون أن النية تكفيهم. والحق غير ذلك.

أما الذكر الخاص المأذون، فإن صاحبه، لن يـزداد إلا اطمئنانـا. وإذا كان في مزاجه عدم اعتدال، فإنه مع الذكر، يسير في اتجـاه تحصيل الاعتـدال. وحتـى إن كـان يعـاني مـن بعـض الأمـراض الروحانية أو العضوية، فإنها قد تزول، أو تخف مع الذكر. كل هـذا بحسب "نظرة" الشيخ، وليس مطلقا. ثم إن وقعت له مـشاهدات، فإنها تكون صحيحة، سواء كانت خيالية أو حسية. وإن أتاه كشف علمي يكون صحيحا، وهكذا...فانظر أثر الإذن، واعتبره في ذكـرك تكن من المفلحين بإذن الله.

ب ـ الذكر الحال:

ذكر الحال، نعني به ذكر القلـب. وهـو الطـور الثـاني بعـد ذكـر اللسان. فالذاكر إذا واظب على الذكر، في ليله ونهاره، فإنه يرتقـي به إلى شروع القلب في الذكر. وهو حلول معنى الذكر فـي بـاطن الذاكر. ويجد نفسه ذاكرا، حتى مع توقف اللـسان، بـل قـد يجـد نفسه في ذكر وهو نائم. وعلى الـذاكر إن وجـد هـذه الحـال مـن نفسه، أن لا يُقلع عن ذكر اللسان فـي وقتـه، فإنـه يزيـده مُكنـة ورسوخا. وكلما ازداد القلب ذكرا، أصـبح فـي منـأى عـن الغفلـة.

فتصبح غفلته عارضة، وفي أوقات وجيزة، إن هي قورنت بغفلة الغافلين. فيترقى في هذه الحال، حتى يبلغ غاية الذكر. وفي أهل ذكر القلب يقول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[71].

ويقول أيضا: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[72]، فشرح الصدر من أحوال القلب. وقد ذَكر الله في مقابلهم من حاله قسوة القلب بسبب عدم ذكره. فالضد بضده يُعرف.

ج ـ الذكر الغاية:

الغاية في الذكر هي أن يصبح الذاكر ذِكرا. وفي هذا الصنف الأخير، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾[73]. والذكر الكثير هو المستغرق لكل الأوقات والأحوال. فلا غفلة مع هذا الذكر، حتى وإن تكلم صاحبه فيما يبدو أنه منها. وأهل الغايات من الذكر هم المقصودون حقا (من باب التأويل) في قول الله تعالى:﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ

---

[71] . النور: 37.
[72] . الزمر: 22.
[73] . الأحزاب: 41.

مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[74]، فهم الذين ذكروا ربهم في أنفسهم، تضرعا وخيفة، من غير إدلال أو إخلال بأدب الحضور. كما يفعل القاصرون، ومن غير شطح كما يفعل المغلوبون. وهو المقصود بعدم الجهر بالقول. يذكرون بالغدوّ والآصال، أي في حالي البقاء والفناء باعتبار نفوسهم (لطائفهم). والغفلة المتعلقة بهذا الصنف والتي نهى الله عنها في الآية، هي النزول عن الكمال المشار إليه سابقا، فاعلم ذلك؛ وليست هي الغفلة المعلومة عند الناس. بل هي عند غيرهم من خالص الذكر. وفي مثل هذا قيل: "حسنات الأبرار، سيئات المقربين". وفيهم أيضا يقول (من باب التأويل أيضا): ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾[75]، قالوا: إذا نسيت نفسك. وأما قوله: عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا، فهو عدم رؤية النفس في مقابل الحق، بل يراها حقا. فهذا أقرب رشدا من غيره من أهل الغاية. وهذه المرتبة تكون للمحققين، لا لعامة العارفين. فالمحققون، مع الحق بالحق للحق في الحق. ماتوا ميتة الأبد.

2. حقيقة الذكر:

[74] . الأعراف: 205.
[75] . الكهف: 24.

الذكر حقيقة، يتعلق بالاسم لا بالمسمى كما يظن من لا علم له. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ ﴾[76]، وقال أيضا: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ ﴾[77]؛ وقال في التسبيح: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ﴾[78]. فعلى هذا يكون الذكر ذكر المرتبة، أو ذكر معنى من معاني الأسماء الخاصة؛ أما الذات التي هي المسمى فلا ذكر لها، وما ينبغي أن يكون. وكل من ظن أنه يذكر الذات، فإنه مخطئ ومشرك. ونعني بالشرك هنا، الشرك المناسب لهذا المقام. غير أن للذات تجليا ذوقيا منها وإليها، يعتبر ذكرا في هذه المرتبة. وهو ذكر الذات أو ما سماه الشارع عليه وآله الصلاة والسلام، اسم الله الأعظم. فقد جاء في الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:« اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣ ﴾[79]، وفاتحة سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ ﴾[80]» [81]. ولو

---

[76] . المزمل: 8.
[77] . الإنسان: 25.
[78] . الأعلى: 1.
[79] . البقرة: 163.
[80] . آل عمران: 1 - 2.
[81] . أخرجه أبو داود في سننه، عن أسماء بنت يزيد.

تأملت لوجدت في الآيتين المعنى الذي ذكرناه لك، وهـذا أقـصى ما يكون من الذكر، ثم ينقطع الذكر.

3. التوجه في الذكر:

يُطلب من المريـد غالبـا أن يستحـضر شـيخه فـي ذكـره بـأن يشخص صورته في خياله. وهذا العمل قد يستـشكله كثيـر مـن الناس، ظنا منهم أنه من البدع الشركية. والأمر غيـر مـا يظنـون. وقد سبق أن ذكرنا أن المرء عند بلوغ الغايـة يـصبح ذكـرا. فـإذا أصبح ذكرا كيف يدل علـى الـشرك! وقـد ورد هـذا المعنـى فـي الحديث الشريف المروي عـن أسـماء بنـت يزيـد، أنهـا سـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ألا أنبـئكم بخيـاركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: خياركم الذين إذا رؤوا ذكر اللـه عـز وجل»[82]. فمن يُذكر اللـه عنـد رؤيتـه، فهـذا يعنـي، أن صـورته أصبحت ذكرا. ومن أصبحت صـورته ذكـرا، فـإن هـذه الخاصـية تكون لها، في عالم الحِسّ أو في عالم الخيال. لهذا السبب طالـب الشيوخ الربانيون مريديهم بتخيل صورهم عنـد تـلاوة أذكـارهم. فبذلك يجمعون لهم بين الذكرين. وهو أدعى أن يقربهم من ثمار

[82] . أخرجه ابن ماجة في سننه.

الذكر. وهذا المعنى هو عينه المعنى المقصود في آية الوجه التي انطلقنا منها، في الفصول الأولى.

أما إن أردت أن تعلم لماذا ينكر بعض شيوخ التربية، التوجه إلى الشيخ، فاعلم أن إنكارهم يدل على أنهم ليسوا من الطبقة التي نتكلم عنها. وهم إذا وجهوا مريديهم إليهم، فإنهم لن يحصلوا ذكر الوجه (الصورة). وهذا إبراء لذمتهم مما قد يلحق المريد من الضرر بتوجهه إليهم. وهذا النوع من الشيوخ، يكون إما لنيل التبرك فحسب، أو يكونون من شيوخ مرتبة الإيمان، وإعمار الباطن.[83] والناس غالبا إذا سمعوا عن شيوخ التربية، يظنونهم على درجة واحدة، فيُحجبون بأحدهم عن الآخر. ويظنون أنهم في ذلك على علم. والحقيقة أنهم على جهل، ولكن قد يكونون صادقين في حكمهم بما يعطيهم "علمهم"، لا على الإطلاق. وهذا مما يقع فيه الناس كثيرا، ولا يشعرون. وهو من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى الخلاف بين العلماء.

ولا بد هنا، أن ننبه إلى أن شيوخ التبرك، هم شيوخ مجازا لا حقيقة. وذلك أن المريد معهم، لا يحصّل الترقي؛ وإنما يحصّل الأجر، إن هو حافظ على الشرع وآدابه؛ كعدم الخوض فيما لا

[83] . انظر مرتبة الإيمان من كتابنا "مراتب العقل والدين"

يعنيه، وعدم الوقوع في أهل الله، ممن لا يدرك علومهم وأحوالهم؛ وإلا كان من جملة أعوان إبليس. وشيخ التبرك إن لم يدل المريد على مواطن هلاكه، حتى يجتنبها، فإنه يكون خائنا له. ثم ينبغي على شيخ التبرك أن لا يعطي تلميذه إلا الذكر العام، وإلا تحمّل عند الله، ما يلحقه من أضرار. ثم عليه أن ينبه تلامذته، إلى وجود طبقة الشيوخ الربانيين، إن أراد أن يكون منصفا، وأن لا يكون من جملة الحجب التي تحجب الناس عن طريق السلوك. وما يفعل ما ذكرنا، إلا قليل منهم؛ بسبب أمراض قلوبهم، واستلذاذهم ربوبيتهم على من يتبعهم. نسأل الله العافية!

الفصل السادس
الحميات

1. الجوع:

لقد تكلم أئمة الطريق السابقون عن الأركان الواجب مراعاتها، وفصلوا ذلك تفصيلا لا مزيد عليه؛ كالإمام أبي حامد الغزالي في إحيائه. ونحن لن نكرر ذلك هنا، وإنما سنكتفي بالإشارة إلى أصولها.

والذكر الذي يلتزم به المريد مع شيخه، لا بد له من مساعدات، تحافظ على نوره، إن لم تزد فيه. وذلك أن الذكر باللسان، ليس مقصودا لذاته في طريقنا، وإن كان مقصودا للعامة وأهل التبرك؛ بل هو وسيلة للمريد للوصول إلى معاملات لله، تكون سببا هي الأخرى في القرب بإذنه سبحانه.

لذلك وجب على المريد أن يراعي ما يساعد على تحقيق هذا الغرض، وليس إلا ما سميناه "حميات"؛ قياسا على ما يشترطه الطبيب على المريض من حميات تساعد على شفائه.

وأول هذه الحميات، الجوع. وما نقصده بالجوع، هو عدم الشِّبع. وذلك أن الشبع يطفئ نور الذكر، خصوصا إن كان ديدنا لصاحبه. وهو أيضا (أي الشبع) يثقل الأعضاء عن الطاعات عموما. ومن هذا الوجه، هو يعاكس ما المريد مقبل عليه.

وأفضل الجوع، ما كان عن صيام شرعي. وأفضله ما كان متوسطا أو قريبا منه. ويوافقه في شرعنا صيام يومي الاثنين والخميس. فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم »[84]. فإذا كان يوم فطره، فليقتصد في تناول الطعام، إلا بقدر الضرورة. فإن كان المريد ممن يعمل في يومه عملا شاقا، فليتناول من الطعام ما يمكّنه من القيام بشغله. أما إن كان متفرغا، فعليه أن يكتفي بما يقيم أوده فحسب.

وليقنعِ المريد بما حضر من الطعام وإن كان غليظا. وليجتنب اشتهاء الطعام قبل حضوره، فإن جاءه الطعام وفق شهوته،

[84] . رواه الترمذي وابن ماجة.

فليتركه، إلا إن كان يراه من الله، مشاهدة لا اعتقادا. أما إن كان في جماعة، فليتوسط في الأكل، حتى لا يَشعُر به غيره، فتتقوى نفسه من نظر غيرها إليها بالتعظيم. ولا ينس أن المقصود من المعاملات هو الباطن. وهذه من القواعد الذهبية في الطريق. وقليل من يحافظ عليها. وليعلم المريد أن كل عمل في الظاهر، يفسد الباطن، فهو مما يجب تركه ما لم يكن فرضا. فإن مراعاة الباطن في طريقنا مقدمة، بخلاف طريق الفقهاء؛ فإنهم لا يراعون في الغالب إلا حكم الظاهر.

وليجهد المريد أن يكون له نصيب للصدقة من طعامه. وليكرم إخوانه على قدر مستطاعه. فإن الوارد متعدد الطرق بحسب تنوع الأوراد، والصدقة من آكد الأوراد لمن كان ذا سعة.

ويلتحق بحكم الطعام، اللباس وما جرى مجراه. فليكن المريد فيه من المتوسطين، وليكتف منه بما اعتاده العامة، ما لم يكن مخالفا للشرع. فإن من لباسهم في أيامنا، ما لا يليق بالعابدين.

والجوع الذي نعنيه، ليس جوع المجاهدة هنا، وإنما هو التشبه بصفة الحق. فقد ورد في التنزيل: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[85]؛ فعدم الإطعام صفة الحق. ومن أراد أن يتحقق بالحق، فعليه أن يخرج

[85] . الأنعام: 14.

من صفته إلى صفة الحق. وقد جاء في الحديث القدسي: « الصوم لي، وأنا أجزي به...»[86]: أي، صفة لي. ومن هنا تعلم الفرق بينك وبينه. وقد سئل الشبلي رضي الله عنه، من هذا الباب: ما القوت؟ فأجاب: الله! فإذا صمت، فاعلم من أي حقيقة؛ وإذا أفطرت، فاعلم من أي حقيقة. واعلم علامَ تفطر حين تفطر.

وعلى هذا، فإن الجوع في الباطن، يثمر الغنى بالله.

2. السهر:

السهر رديف الجوع. فالجسم إذا لم يكن مثقلا بالطعام، لم يحتج كثير نوم. وقلة النوم عون للمريد على كثرة الذكر. وليجعل نصيبا من ورده ليليا، فإن الليل لأهل الباطن. ومن وافق الأصول، كان أدعى في حقه لبلوغ المراد. وقد نبه الله تعالى إلى هذا المعنى فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾[87]، والمريد لا شك أنه ممن يريدون الذكر، ويريدون الشكر! ويقول أيضا سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾[88]. ثم قال سبحانه، في صفة المتقين المحسنين: ﴿

---

[86] . أخرجه النسائي، عن أبي سعيد.
[87] . الفرقان: 62.
[88] . ق: 40.

كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[89]. وسنعرض هنا لتأويل آيات من سورة المزّمّل، بما يناسب إشارات الباطن؛ أما الظاهر فبيّن عند أهله. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾[90]: هذه الآيات، نزلت في قيام الليل الذي أوجبه الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم، قبل فرض الصلاة. والمزمل في الظاهر، هو النائم المتدثر في ثوبه؛ أما في الباطن، فهو العبد المحجوب بصورته العدمية، التي هي له كالغطاء على حقيقته. واعلم أن كل ما يذوقه أفراد الأمة (الأمة هنا، هي الأمة الكبرى، التي من جملتها الأنبياء عليهم السلام وأممهم) من أحوال الطريق، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قد ذاقه، بحسب ما يليق برتبته المنيفة، التي لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين. ولولا ذلك ما صح أن يكون ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قدوة لنا، كما أخبر الله، حيث يقول سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[91]. فإياك أن يغيب عنك هذا. ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ

---

[89] . الذاريات: 17 - 18.
[90] . المزمل: 1.
[91] . الأحزاب: 21.

وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾[92]: قيام الليل، يكون بحسب همة المريد، وموقعه من الطريق. فقيام الليل إلا قليلا، هو لأصحاب الهمم العالية؛ وقيام نصف الليل ـ بزيادة قليلة، أو نقصان قليل ـ يكون للمتوسطين. وقد نبه الإمام الشعراني رضي الله عنه في كتابه "الميزان الخضرية"، إلى كون أحكام الشرع كلها جاءت بين عزائم ورخص. ومراعاة ذلك، خصوصا فيما يرجع إلى الشيوخ، هو من ضروريات التربية. وربط القيام بتلاوة القرآن، هو ربط ذوقي. وتحقيقه، هو قطع مقامات السلوك، واحدا بعد واحد. والترتيل هنا، هو التمكن من كل مقام، حتى لا يبقى على المريد بقية منه. والمعنى الذي نشير إليه، مذكور في الحديث النبوي الشريف. فعن عبد الله بن عمرو، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: « يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا. فإن منزلتك، عند آخر آية تقرأها »[93]. أولا علينا أن نعلم أن قراءة اللسان للقرآن، تثمر الحسنات، إن شاء الله. وهو ما جاء في حديث: « من قرأ حرفا من كتاب الله، فله به حسنة؛ والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: الم حرف، ولكن، ألف حرف، ولام حرف،

---

[92] . المزمل: 2 - 4.

[93] . أخرجه احمد، وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث سفيان الثوري، وقال الترمذي: حسن صحيح. ذكره ابن كثير في التفسير.

وميم حرف»[94]. أما الحديث الذي كنا بصدده، فهو ينطبق في الدنيا على أهل الله (أهل القرآن). وتمعن معي في ألفاظ: "اقرأ وارق"، و"فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها". فالترقي، هو ما نعنيه بالسلوك؛ والمنزلة (المكانة) هي ما نعنيه بالمقام. فهل هناك ما هو أدل على ترتيل القرآن الذوقي، من هذه الألفاظ؟! ومع ذلك، فإن الناس يغفلون عنها، حتى ما عادوا يقبلون معانيها، وهي من صميم الدين. وقد كنا أشرنا إلى معنى القراءة الذوقية للقرآن في كتابنا "تحقيق معنى الصلاة"، فاربط بين ما قلناه هناك وما نقوله هنا.﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾[95]: القول الثقيل، هو الفتح. ولا أثقل على النفس منه! إذ به ذهابها. وهي أثناء سيرها، ما كان يخطر على بالها ذلك. وإنما كانت تتوهم أن فناءها هو تجريدها من صفاتها، مع الإبقاء على عينها. وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يا رسول الله! هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك. فما من مرة يوحى إلي، إلا ظننت أن نفسي تقبض»[96]. هذا من الحال الخاص

---

[94] . أخرجه الترمذي في سننه، والدارمي في سننه بلفظ قريب منه.
[95] . المزمل: 5.
[96] . ذكره ابن كثير في التفسير، وقال: تفرد به أحمد.

بالوحي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أما المريد فله أحوال ـ على قدره ـ تصاحب دخول النور على ذاته. وفي كل مرة يحدث له ذلك، فكأنه يذوق الموت. ولسنا ندّعي نزول الوحي على أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قد يتوهم البعض من كلامنا، ولكنه التعريف الذي يحصل للمصطفَين من العباد، في القرآن. وهو نفسه الترتيل الذي ذكرناه آنفا. فاعلم ذلك.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ ﴾[97]: ناشئة الليل، أوله. وهي أشد وطئا على نفس المريد، لأنه حديث عهد بها. فأحكام الباطن، معاكسة أحيانا لأحكام الظاهر. وهو، كان قد اعتادها. وأقوم قيلا: أي أعدل قولا. وهو الحكم الجامع بين حكمي الظاهر والباطن. وهو للبرازخ. فما دلّ الله نبيه، ومن بعده سالكي الطريق، إلا على الكمال. ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ ﴾[98]. التسبيح الطويل، مناسب للنهار لا لليل، وذلك بسبب ظهور آثار الأسماء المختلفة، التي تشتت التوجه للمريدين. أما ذكر الليل، فهو أحدي، لا يحتاج معه المريد إلى مقاومة معاني الأسماء. وهو أبلغ في تحقيق المراد. ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ ﴾[99]: تكلمنا فيما قبل عن ذكر

---

[97] . المزمل: 6.
[98] . المزمل: 7.
[99] . المزمل: 8.

الاسم، وما يعنيه. فمن ظن أنه يذكر ربه، فهو مشرك في ميزان الحقائق. وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا: أي انقطع إليه انقطاعا، من العالمين، ومن نفسك. ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[100]: لا تنس أن الحق هو رب الظهور ورب البطون، فكن معه لا مع الصفة. فاتخذه وكيلا من حيث الذات، تفز بالكمال المحمدي. ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾[101]: اصبر على ما تسمعه من أصحاب المقامات الجزئية والفرعية، لأنهم لن يقروك على ما أنت عليه، بسبب خروجك عن مجال إدراكهم. ولا تلتفت إليهم بباطنك، واطمئن إلى حالك. وأبق ظاهرك مع كل قائل، من حيث ما هو فرع لك، حتى لا يستوحشوا منك، إن كنت خليفة. فإنهم إن استوحشوا، لن ينتفعوا بك. هذا هو معنى الهجر الجميل، وهذه شروطه!

أما قول الله تعالى من نفس السورة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾

[100]. المزمل: 9.
[101]. المزمل: 10.

[102]: فقد نزلت هذه الآية بعد سنة من عمل المسلمين على قيام الليل على وجه الوجوب. فخُفف عنهم بها، وأصبح قيام الليل سنّة. فعدّ العلماء، آية الوجوب منسوخة بهذه. هذا من حيث الظاهر؛ أما من حيث الباطن، فهو تخفيف من الله على عباده، بأن جعل سبب تحقيق السير إليه سبحانه، والذي كان محله الليل، ممكنا تحقيقه بالنهار، باعتبار الأحوال الغالبة على الناس. فمن مريض، يقعد به استعداده عن التروحن، ومن متكسب يقصد الأجر، أقامه الله في مقامه، لا يبلغ أن ينقطع إلى الله انقطاعا؛ ومن مجاهد في سبيل الله، إما بالسلاح أو بالعلم؛ ينصر الدين، ويذب عنه. وعلى هذا، فالآية عندنا ليست ناسخة، وإنما هي قد وسّعت دائرة العمل بالآية الأولى، حتى يعم الفضل جل الأمة. فالوجوب من حيث الباطن، يبقى منوطا بذوي الهمم العالية، والسنة تسع الكل. هذا يشبه فيما بعدُ إنقاص عدد الصلوات المفروضة إلى خمس، مع الإبقاء عليها في الأجر خمسين. وكله، من فضل الله على هذه الأمة الشريفة.

[102] . المزمل: 20.

وليجعل المريد تدرجه في السهر شيئا فشيئا، حتى لا يختل مزاجه. وليراع ما يتطلبه عمله في النهار من تركيز، إن كان من المتكسبين.

والسهر في الباطن، يعطي المراقبة، التي هي مقدمة المشاهدة.

3. العزلة:

العزلة هي الانقطاع إلى الله في الظاهر، عن الخلق، إلا ما كان ضرورة. والمقصود منها التخلق بصفة الأحدية في الباطن. وكمالها في الخلوة. وقد اختلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الغار قبل أن ينزل عليه الوحي. وحقيقة الخلوة، ما جاء في الحديث عن عمران بن حصين، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « كان الله ولا شيء غيره...»[103]. وعلى التحقيق، فإن الخلوة هي صورة الأحدية. أما التحقق بها فلا يكون إلا لمن كان كل شيء مما سوى الله مندرجا فيه، لأن الأحدية هي باطن الواحدية. أما من كان غير ذلك، فلا بد أن يكون معه شيء. فإذا كان معه شيء، فلا خلوة. ولكن أهل الله أبقَوْا على الصورة من أجل استصحاب المعنى.

---

[103] . أخرجه البخاري.

هذا في الأزمنة التي كان بمقدور المريدين الاختلاء؛ أما اليوم، فقليل من الناس من يملك وقته. والتزامات العمل كبّلت معظمهم. فصار مطلوبا الاكتفاء ببعض العزلة، حتى يصفو باطن المريد من كدر المخالطة، التي صارت تورث الغفلة، بسبب ابتعاد العامة عن الذكر. ولا بأس أن يكون للمريد ساعات عزلة في اليوم، أو يوم في الأسبوع، أو أيام في الشهر. وليقتصر في معاملة الناس على الضرورة، فإنه مقبل على شأن عظيم، الناس عنه لاهون.

أما إن كانت العزلة في جماعة من الإخوان، فليشتغل فيها بخاصة نفسه، وليكتف بالضروري من الكلام، إلا إن كان عن إذن شيخ.

والعزلة في الباطن، تعطي ذوق الأحدية كما قدّمنا.

4. الصمت:

الصمت تابع للعزلة. وقد ذكر الله الصمت في قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[104]. والصمت أحدي الحقيقة، بخلاف الكلام الذي هو واحدي. والصمت في الظاهر، يعطي المريد في الباطن الكلام الحق، الذي هو الحكمة. فقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال:

[104] . مريم: 26.

"إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت، ويهرب من الناس (العزلة)، فاقتربوا منه؛ فإنه يلقّن الحكمة."

والمريد عليه أن يكون بين ذكر وصمت. فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « ...ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت»[105]؛ ولا خير أكبر من ذكر الله! ولا صمت أفضل من صمت في الله!

فهذه الحميات الأربع، لا بد للمريد منها، حتى يكون لذكره نور. فإن هو حافظ على ذكره، وأحاطه من جهاته الأربع، بالجوع والسهر والعزلة والصمت؛ فإن رياح الغفلة لن تطفئه أو تجعله يضطرب. ولا نور للمريد يسير على هداه إلا الذكر؛ فمن عرّضه للفناء، فقد سعى في تلف نفسه.

وهذه الحميات، تساعد المريد على جني ثمرة الذكر، فيزداد بذلك نورا عى نور. أما مخالفتها، فتورث قسوة القلب، التي تجعل الذكر يثقل على النفس. ومن لم يراقب الصادر والوارد من قلبه، فقد ألقى ميزان الترقي من يده. ويكون سيره على غير هدى.

والصمت في الباطن، يعطي الكلام في القلوب من غير تلفظ.

[105] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل السابع
الواردات

لكل عمل شرعي وارد. لكن الوارد يختلف بين العام والخاص من الأعمال. وقد رأينا فيما قبل أن الذكر منه عام وخاص؛ وعلمنا أن العام يكون وارده عاما، يناسب كل الاستعدادات، إلى جانب الأجر الذي رتبه الله عليه. والمقصود بالوارد الخاص، النور.

وقد جمع الله ذكرهما في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ ﴾[106]. وكلامنا نحن هنا عن الوارد الخاص، الذي يكون للورد الخاص، الذي سبق أن بيّنّا شروطه. ولن نتكلم عن الأجر، لأنه عندنا يأتي بالتبع، ومن غير قصد.

فالوارد الخاص، هو النور الذي يقذفه الله في قلب عبده، حتى يقربه منه سبحانه، ويعرفه به إن شاء. وقد فرقنا بين القرب والمعرفة، وإن كانت منه، لأن القرب قد يطلق على معان تتعلق

[106] . الحديد: 19.

بالمعاملة عن إيمان؛ بينما المعرفة تقتضي كمال العلم والعيان. والله سبحانه وتعالى لا يكون جزاءً لعمل من الأعمال. فمن نال المعرفة بربه، فإنما نالها من محض الفضل والمنة. فاعلم ما نذكره لك، وتأدب مع ربك. فإن الأدب عندنا زبدة العلم، وزينة العمل.

والنور الذي يدخل على ذات المريد، يكون حالا، أو كشفا، أو هما معا.

والحال، هو المقابل للشؤون الإلهية عند العبد. فالعبد ـ على هذا ـ كل يوم (زمن فرد) هو على حال، كما هو الله كل يوم في شأن. فإن بدا أن الحال دام زمنين فصاعدا، فهو من خلق الأمثال. فافهم ما نلقي إليك! وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[107]. فلا يخلو عبد من حال. لكننا سنقصر الحديث عن الأحوال الخاصة بأهل الطريق، بمعناها الاصطلاحي.

فالحال إما طبيعي، أو إلهي. فالطبيعي، هو ما انفعلت له طبيعة المريد، حتى ظهرت نتيجته فيها طربا، أو اضطرابا، أو بكاء، أو صعقا أو غير ذلك. وهو نظير ما يحدث في الطبيعة الأم، من تغير أحوال الطقس. تهب الريح، فتتجمع السحب وتتلبد، ثم تُبرق وتُرعد. فتمطر ماء أو تُثلج، بحسب برودة الجو وحرارته. وقد

[107] . الرحمن: 29.

تكون الرياح عقيمة جافة، وهكذا.. فكذلك مزاج المريد، لا يخلو من برودة أو حرارة، ورطوبة أو يبوسة. فإذا ورد الوارد من الحضرة، يكون كالريح. وهذه الريح قد تكون علوية أو سفلية. فإن كانت مما ينتج معرفة بالله، فهي علوية. وإن كانت مما ينتج علما بالنفس، فهي سفلية. وقد تكون نازلة، أو صاعدة أو أفقية. فالأفقية، ما يبقيك في مستواه؛ والصاعدة، ما رفعك منك إليه؛ والنازلة، ما هبط بك منه إليك. والبرودة عندك القبض، والحرارة البسط. فامتزاج هذه العوامل على شكل مخصوص، هو الذي ينتج حالا مخصوصا. وقد ذكر الله أمهات الأحوال في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾[108]: فالقبض الإلهي والبسط أصلان. وفي مثل هذا قيل: "ما منعك، إلا ليعطيك!" وقال أيضا: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ﴾[109]: بالإضافة إلى المعنى الظاهر، فالله يعلم ما يلج في أرض النفوس من خواطر، وما يخرج منها، من ظنون؛ وما ينزل من السماء من واردات، وما يعرج فيها من أحوال قلبية. وهو الرحيم، بإخراج الأحوال من عدمها؛ الغفور بالنازل منها

---

[108] . البقرة: 245.
[109] . سبأ: 2.

للصاعد. وقال أيضا: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾[110]، فذكر الأحوال الظاهرة، التي هي رشحات الأحوال الباطنة. وذلك أن طينة الإنسان تتأثر بما يعتمل في قلبه، إما لضعف في الاستعداد، أو لقوة في الحال.

أما الأحوال عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فزيادة على ما كان يظهر عليه صلى الله عليه وآله وسلم، من آثار كالبكاء وغيره، معلومة لدى العموم؛ فإن باطنه الشريف، كان دائم التلون، على حسب ما يرد عليه من ربه. فلا تجد له حديثا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلا وتحته حال؛ بل إن القرآن الكريم، لم تنزل منه آية، إلا وهي منصبغة بحال من أحواله الشريفة. ومن كشف الله له عن أسراره في ذلك، وجد كنزا لا يظفر به إلا الأفراد.

أما الحال الإلهي ـ عند العارفين ـ، فهو يشبه الحال الذي كان يصاحب نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من غير نزول وحي تشريع. فقد روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، أنه قال: « كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فغشيته السكينة. فوقعت فخذ رسول الله صلى الله عليه

[110] . النجم: 43.

وسلم على فخذي. فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم سرّي عنه، فقال: « اكتب» فكتبت....»[111]. فهذا هو الحال الإلهي، الذي للورثة من ذوقه نصيب. وصاحب هذا الحال، لا يقوى على رفع جسده من الأرض، وقد ينطرح عليها، حتى يلتصق كل جزء منه بها. ولن نخوض في سر ذلك، لأنه ليس مما يعني المريدين.

أما باقي الأحوال التي تعتري المريدين وبعض الأشياخ، فهي أحوال نفسية، من تلبيس إبليس. كالرقص، والمبالغة في الصراخ عن غير غلبة، وغير ذلك مما لا تقبله الطباع السليمة. أما المجاذيب، فلا يقاس عليهم، بل تُسلّم لهم أحوالهم كيفما كانت. والفرقان بين المجذوب وغيره من المدعين، هو قبول أهل الله للمجذوب بباطنهم، واشمئزازهم من غيره. فهم رضي الله عنهم شهداء على أصحاب الطريق.

أما الوارد الكشفي، فهو إما علمي أو شهودي أو هاتف. والكشف العلمي الذي نعنيه، هو الكشف المجرد، الذي يقذفه الملك في قلب المريد، فيجده عنده، من غير تدبر أو تفكر. أما الذي يراه مكتوبا، أو يسمعه، فيلحق بالمشاهدة أو الهواتف.

---

[111] . أخرجه أبو داود.

وأما الكشف الشهودي، فيرى فيه المريد صورا خيالية أو حسّيّة، يقظة أو مناما، يفهم من حركتها أو كلامها ما يفيده علما مما يحتاجه في طريقه. وهذا يحدث كثيرا للمريدين.

وهذه الأنواع من الكشوفات هي من وسائل التربية الروحية الضرورية. فالشيخ يوصل بهذه الوسائل ما يغني عن مطالعة مجلدات من علم الطريق.

الحال والعلم، والعمل، كلها سبب ترقي المريد. فالعمل عندنا، وإن كان ثابت الصورة، فهو متطور دائما من حيث روحه. هذا هو الفرق بين طريقنا، وطريق الفقهاء.

وإذا تتبعت ما ذكرنا أصوله سابقا، في سِيَر الصحابة رضي الله عنهم، فإنك ستجد كل ذلك. الناس يظنون أن الصحابة في إقدامهم ـ أثناء الغزو مثلا ـ كانت تدفعهم الشجاعة؛ والحق أنه الحال! وفي بذلهم مالهم لله ورسوله، يظنون أنهم كانوا يغالبون شح أنفسهم؛ وهو الحال! وفي شدة محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفدائه بأنفسهم وأهليهم، إنه الحال!

يقف الوعاظ اليوم، يذكرون من سيرة الصحابة أمام الناس، ويسألونهم أن يفعلوا مثلهم. كيف وهم لم ينهلوا من منهلهم؟! هذا لا يكون!

من أراد أن يذوق بعض ما ذاقت الصحابة رضي الله عنهم، فليصحب وارثا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وليتأدب معه في الأخذ عنه، ولينظر بعد ذلك..

أما مجرد الكلام، خصوصا إن كان صادرا عن صدور خربة، فلن يعدو أن يكون أصواتا تذهب بها الريح. هذا من شهادة الواقع. والنتائج تُستقرأ من أسبابها. أما المكابرة والاستمرار في الغيّ، فلن يعود إلا على صاحبه. ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[112].

[112] . محمد: 38.

الفصل الثامن
المعرفة

معرفة الحق، هي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل. والتزكية غاية غاياتها المعرفة. ولكن دونها أهوال كثيرة، كما قال سيدي الجيلاني رضي الله عنه. أهوال من معاناة النفس، في سبيل تخليصها. معاناة في سبيل التحقق بمقامات الإيمان، وهو ما يسمونه إعمار الباطن؛ ومعاناة بسبب اندحار النفس أمام التجلي، وهو ما يسمونه موتا.

واعلم أن الحقيقة لن يستطيع أن يقوم لها شيء، فهي تأبى ذلك؛ ولكن الله لما شاء أن يُعرف، خلق من نوره الحقيقة المحمدية، وجعلها مرآة ذات وجهين. وجه إلى الحق، ووجه إلى الخلق. فكانت برزخا حافظا للخلق من المحق. فالخلق لا يعرفون من الله إلا ما ظهر لهم في مرآة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يعلمون الوجه الآخر من هذه المرآة، إلا به صلى الله عليه وآله وسلم.

فالحقيقة شمس لا تستطيع البصائر أن تثبت لها. وهي تميزها عقلا، إن هي خطفت النظر إليها خطفا. أما إن ثبتت تجاهها، فإن إبصارها يعود عمى، حتى لا تعود تميز بعده شيئا. وقد جعل الله ذلك يظهر في الشمس الحِسّيّة، مع الأبصار السليمة، عبرة لأولي الألباب. أما إذا أراد الناظر أن يبصر نور الشمس من غير أن يتأذى، فعليه أن ينظره في وجه القمر. فالقمر واسطة بين الشمس والناظر، كما هي الحقيقة المحمدية واسطة بين الحق والعالم. ومن هنا كانت الأمة المحمدية تعد الزمن بالشهور القمرية. ومن هنا حُفظت من الضلال الذي وقعت فيه النصارى. فالنصارى تجليهم شمسي من باطن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، في مظهر سيدنا عيسى عليه السلام. فضلوا بالحق، لأنهم لم يقوَوْا على الثبات أمامه. فالحقيقة المحمدية هي المثبتة للعالم، ومن دونها ما كان ليوجد، فضلا عن أن يعلم الحق. ويعضد ما نذهب إليه أن رؤية الحق في الآخرة تكون قمرية وشمسية. فقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه « أخبر أن ناسا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يا رسول الله! قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، يا رسول الله! قال:

فإنكم ترونه كذلك...»[113]. والحظ قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« هل تضارون..؟ »، فإنه يفيد عدم وقوع الضرر الذي هو الحجاب. ورؤية أهل السعادة، ينبغي أن تكون كذلك، بسبب عدم وقوع الضرر عموما في حقهم؛ وإلا كان العذاب يصيبهم بقدر ذلك الضرر. وهذا ممتنع. أما في الدنيا، فالضرر قد يصيب السعيد والشقي، لأن الدار دار امتزاج؛ كما أن الحجاب قد يكون من أسباب الشقاء فيها. لذلك كانت المشاهدة الشمسية قد تعطي الحجاب، رغم أنه لا حجاب. وحتى المشاهدة القمرية، قد يقع معها الحجاب. لكن الفرق هو أن الحجاب مع المشاهدة القمرية، يُبقي على أصل الإيمان؛ أما الحجاب مع المشاهدة الشمسية، فيعطي الضلال الذي أشرنا إليه سابقا. والنشأة الثانية التي يخلق الله عليها الخلق في الآخرة تعطي الثبات الذي كان ممتنعا مع المشاهدة الشمسية في الدنيا. فللمواطن سلطان لا ينبغي أن يُغفل.

وكل جزء من العالم، له معرفة بربه على ما يعطيه استعداده. ما يتخلف عن هذا إلا الأجسام المركّبة المكلفة، كالإنسان. فإن المعرفة لا تحصل لكله إلا في بعض الأفراد. وهذه المعرفة، هي التي بها تكمل الصورة الإلهية في الآدمي. وهذه الصورة الإلهية، هي الأمانة

[113] . أخرجه مسلم. وهو عند البخاري بلفظ قريب منه.

التي ذكر الله في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[114]. فليس هناك مخلوق قَوِيَ على أن يكون محل ظهور الصورة، إلا الآدمي. لكن، هذا بالنسبة لمن تحقق بباطن الصورة، بالإضافة إلى كونه على الصورة الظاهرة؛ أما من لم يكمل، فهو إنسان حيوان. وقد جاء ذكر الصورة الإلهية في الحديث الشريف: « خلق الله آدم على صورته،...»[115]. الضمير عائد إلى الله، فإياك أن تفهم غير ذلك!

والمريد إذا شاء الله له أن يبلغ النهاية من التزكية، فإنه يصير مؤهلا لأن يكون محلا لمعرفة الله. ولا يكون ذلك إلا بإذن من الله ورسوله؛ لأن الله أعز من أن يعرفه مخلوق من غير إذنه سبحانه. بل لا ينال المرء المعرفة، حتى يكون أبعد الناس عند نفسه، من نيلها. وقد غلط أناس كثيرون في هذا الأمر، فحُرموا هذا الفضل.

والولي إذا عرف الله (المعرفة الذوقية) صارت حقيقته ذات ثلاث طبقات. طبقة ظاهرة (من ظاهر الباطن) بما هو ولي لله متعين؛ وطبقة بما هو الحقيقة المحمدية. وهي الطبقة الوسطى في التحقق، والتي بها قِوام الطبقتين الأخريين. وطبقة بما هو حق، وهي العليا.

---

[114]. الأحزاب: 72.

[115]. أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقد ورد في بعض طرقه: "على صورة الرحمن".

وهذه الطبقة الحقية، على التحقيق هي الوجه الباطن للحقيقة المحمدية، ليس غير. وقد أشار الله إلى كون الحق عند الولي، في الحديث القدسي المشهور: « من عادى لي وليا، فقد آذنته بالحرب...»[116]. انظر كيف ربط سبحانه بين المعاداة للولي، وبين الحرب منه. وما ذلك إلا لأن الحق عند الولي! فكأنه يقول: من آذاني، فقد آذنته بالحرب. وهذا المعنى واضح في مثل الحديث الذي ورد عن عبد الله بن مغفل المزني، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي! فمن أحبهم، فبحبي أحبهم؛ ومن أبغضهم، فببغضي أبغضهم؛ ومن آذاهم، فقد آذاني؛ ومن آذاني، فقد آذى الله؛ ومن آذى الله، أوشك أن يأخذه »[117]. انظر ـ يرحمك الله ـ للطبقات التي ذكرناها في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من آذاهم فقد آذاني»، من الطبقة الدنيا إلى الوسطى؛ « ومن آذاني فقد آذى الله» من الوسطى إلى العليا. ويمكن أن يؤخذ الحديث على معنى الإلحاق، أي بالمعنى العام؛ لكن المعنى الذي أشرنا إليه أوضح من حيث الوجه الذي نحن بصدده. والطبقات ـ وإن تعددت ـ فتعددها عقلي بحسب ما يعطيه التجلي، أما من حيث الحقيقة، فالوجود واحد. فإياك أن تضل عن سواء السبيل!

---

[116] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.
[117]. أخرجه أحمد والترمذي، واللفظ لأحمد.

أما فيما يتعلق بهذه الطبقات عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهي أصل كل مظاهرها عند غيره من عباد الله الصالحين. بل إن طبقاتهم هي تنزلات لطبقاته عليه السلام، على قدر ما يطيقون. فهم قطرات من بحره المحيط. وإذا أردت أن تميزها، فانظر إلى اختلاف درجات الكلام الصادر عنه، صلى الله عليه وآله وسلم. فالقرآن متنزل من حقه إلى حقيقته إلى بشريته. فمن الحق إلى الحقيقة، نزل مجملا؛ ومن الحقيقة إلى البشرية (القلب) نزل منجّما. والحديث القدسي، من حقيقته إلى بشريته. فهو برزخ، لذلك له وجه إلى الحق (اللفظ والمعنى)، ووجه إلى العبد (النطق والإخبار). والحديث النبوي، هو من نبوته التي هي صفة بشريته صلى الله عليه وآله وسلم. وإياك أن تُحجب بما يعتقده العامة من صورة جبريلية خارجية، تمد صورة بشرية هي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تأتي به من صورة إلهية (على حسب مُعتقَد المتخيِّل في الألوهية). فإن قلت: هذا ما نزل به الوحي من عند الله! نقول لك: فرق بين ما نزل به الوحي، وبين ما يفهمه الناس في الوحي. فالله قال مثلا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾[118]. فذكر من نزل بالوحي، ولم يذكر كيفية

[118] . الشعراء: 192 - 195.

نزوله! أما إن قلت: فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان يرى جبريل أحيانا من خارج ويصفه. فهذا يدل على أنه يأتي به من طرف ثالث؟ قلنا: لا تنس ما ذكرناه لك، عندما قلنا: إن الخضر هو باطن موسى عليه السلام؛ ولكنه ظهر في صورة حسية. فهذا مثل ذاك! ومثل هذا يحدث كثيرا مع أهل الله. والحقيقة، أن جبريل من قوى حقيقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نزل بالوحي من حق حقيقته إلى خلقه.

فإذا استوعبت ما ذكرناه لك، فعد إلى ما قدّمناه من كون الشيخ حقيقة المريد، لتعلم أنه ما يتعرف في سلوكه إلا على نفسه. وفي تعرفه على نفسه في شيخه ـ من غير أن يعلم ـ فإنه أول ما يتعرف عليه: الطبقة الدنيا من حقيقة الشيخ، وهي ما يسمونه الخصوصية. فإذا شاء الله له الترقي، فإنه سيعرف الطبقة الثانية من الشيخ. وعندها سيجد نفسه يعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولو أخبر الناس بمشهده في شيخه، لأنكره عليه كل من لا علم له بما نقول، وربما نسبوه إلى الزندقة وهو منها براء. فإذا شاء الله له الترقي، فإنه سيعرف الطبقة العليا من حقيقة شيخه. وسيجد نفسه عندها يعامل الله. وعند أخذه عن شيخه فيما يراه الناس، يكون آخذا عن الله، وما يشعرون. كل هذا من المرحلة الأولى من معرفة المريد

للحق. أما المرحلة الثانية، فهي انطباع ما في شيخه في نفسه، حتى يعود يعرف الحق من نفسه. وهذا هو مسمى الوصول عند القوم. والمرحلتان معا، ذكرهما الله في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[119]. فالشيخ ملخص معرفة الآفاق. والآفاق مفصّل معرفة الشيخ. ثم تأتي المعرفة في "أنفسهم"، وهو ما عبر عنه القائل بقوله: "من عرف نفسه، عرف ربه". المعرفة تكون في الآفاق وفي النفس معا، ليتبيّن الحق. فهل بعد هذا البيان بيان؟! فإن داخلك شك، فاقرأ تتمة الآية ليتضح لك أن كل ما يبدو لك متنافرا، فهو من الحق الذي لا يتعدد. وهو المراد من قوله تعالى: أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ؟ إن كنت تعلم مواقع الكلام!

وتأمل قول الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾[120]، وانظر كيف جمع سبحانه بين الكفر به والكفر بالرسل. فهو كفر واحد. وجعل سببه إرادة التفريق بين الله ورسله.

---

[119] . فصلت: 53.
[120] . النساء: 150 - 151.

بمعنى أن الله والرسل هما مظهران للحق. وإرادة اتخاذ السبيل بين ذلك، التي حذر الله منها، هي اعتقاد الفرق الذي يلزم أهل مرتبتي الإسلام والإيمان. وهذه العقيدة، مسوغ عقلي لقبول الوحي. فهي كالتحايل الذي هو عين اتخاذ السبيل بين ذلك. أما الحقيقة فهي ما ندلك عليه. وهذا المعنى يختص به أولو الألباب، لا نريد أن نلزم به كل المسلمين. فإن الإسلام العام، يثبت للمرء حتى مع الحجاب. وعلى هذا فالكفر المذكور في الآية ـ بحسب التأويل الذي ذهبنا إليه ـ سيكون كفرا لغويا لا عقديا. أي هو كفر أصغر لا كفر أكبر.

وإياك أن تنسب كلامنا إلى ما يتناقله المقلدون من حلول واتحاد! فإن الحلول والاتحاد من مقولات أهل الفكر الكافرين. أما ما نقول نحن فهو من التحقيق. وليس مرادنا من هذا الكتاب أن تدرك بفهمك كل ما نقول، وإنما نريد أن نؤنسك بالحق، حتى إذا عرض لك لم تنكره. وإدراك المقامات التي نتكلم فيها، لا يكون إلا ذوقا، وعلى يد شيخ رباني. لا مناص من ذلك!

وعندما تصل في سيرك إلى الطبقات التي ذكرنا، ستعلم وجوه الخطاب الإلهي في القرآن، وستعلم الخطاب النبوي ووجوهه. وستعلم كلام أهل الله من أي مقام يكون في كل مرة. وستعلم من أين نطق الحلاج رضي الله عنه وأمثاله. غير أن ما كل ما يدرى

يقال. فالحق لا يريد أن يصرح أهله به في الدنيا، لأنها ليست موطن ظهور سلطان الولاية، بل موطنها الآخرة، كما سبق أن ذكرنا في مواضع أخرى. من هنا تعلم نقص من يقول مثل تلك المقولات، رغم أنهم ما نطقوا بأنفسهم. ومن هنا أيضا تعلم أن التفاضل يكون في الحقيقة بين المظاهر لا غير. أما الظاهر فلا يتعدد.

وكما أن السلوك الأول هو سلوك المريد في الشيخ، فإن السلوك الثاني، هو سلوك الواصل في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. نقول هذا حتى لا تختلط عليك المراتب، إذا سمعت الألفاظ المشتركة التي بينها. فإذا قلنا أن المريد يعرف الحق في شيخه مثلا، فما هو الحق الذي يعرفه الشيخ من نفسه من حيث المرتبة. وما هو الحق المعلوم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك قال الله تعالى: ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦ ﴾[121]. فإن قوما اختلط عليهم الأمر، فما عادوا يميزون بين الشيخ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا بين الله ورسوله. فهذا من العمى الذي يعطيه النظر في الحقيقة من غير واسطة مربٍّ رباني. وكلما تقدم المريد في السلوك، يجد الشيخ ضروريا بالنسبة إليه أكثر مما كان، وإلا فليعد إلى نفسه يراجعها ليعلم من أين دخل عليه الخلل.

[121] . يوسف: 76.

هكذا هي الطريق، مبنية على علم دقيق. من لم يحققه فقد يُخاف عليه.

الفصل التاسع
التأويل

لا بأس أن نذكر لك أصل الفهم الخاص الذي نورده في الآيات القرآنية، أو في الأحاديث، حتى لا تتوقف. فإنا نعلم أن من المعاني ما يزلزل العقول، ويعصف بالإيمان التقليدي. ذلك، هو التأويل الذي جاء ذكره في الكتاب العزيز، وفي السنة.

فمن القرآن، قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾[122]، فجعل سبحانه تأويل الأحاديث من دلائل الاجتباء، ومن تمام النعمة على العبد المجتبى. ونبه إلى أن هذه النعمة، قد أنعمها على عباده الأنبياء من قبل. واختصاص هذه النعمة بالأنبياء ـ والورثة ـ هو من حكمة الله، الذي يُعلمهم ما تقوم به نبوتهم عليهم السلام. وقال سبحانه أيضا:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[123]. وقال أيضا:﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا

[122] . يوسف: 6.
[123] . يوسف: 21.

تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا ﴾[124]: أي هذا أصل رؤياي. وقال أيضا: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾[125]: يذكر يوسف عليه السلام تأويل الأحاديث في معرض الامتنان. ويقول أيضا سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢ ﴾[126]، أي حقيقة ما لم تستطع أن تصبر عليه.

أما من الحديث، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت ميمونة، فوضعت له وضوءا من الليل، فقالت له ميمونة: وضع لك هذا عبد الله بن عباس. فقال: اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[127]، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعليم التأويل إلى الله. وهو نفس ما ورد في الآيات السابقة من كون الله يعلم الأنبياء تأويل الأحاديث.

وفعل " أوَّلَ" مشتق من الاسم "أوَّلٌ"، فيكون التأويل، هو العودة بالكلام إلى المعنى الأول. هذا يدل على أن للكلام طبقات من

---

124 . يوسف: 100.
125 . يوسف: 101.
126 . الكهف: 82.
127 . أخرجه أحمد.

المعاني، منها الأول، ومنها ما يأتي بعده. فالمعنى الأول هو المقصود للحق في مرتبة الحق؛ والمعاني الأخرى، هي المقصودة للحق في مراتب الخلق، الذين هم المحدثات. فكان الكلام في مرتبتهم أحاديث.

والتأويل يكون على ضربين:

أوله، أن يؤوّل المرء كلام الحق، فيعود به مما يفهمه الناس عادة في اللغة، إلى مقصود الحق. وهذا لا يمكن إلا إن أطلع الحق عبده على باطن كلامه. وهو الذي سأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابن عمه رضي الله عنهما.

وثانيه، أن يؤول كلام الناس، فيعود به من المعنى الذي يريدون، إلى المعنى الذي أودعه الله له فيه. وذلك أن الكلام العادي هو منسوب إلى الله، قبل أن يُنسب إلى الناس. ومن هنا كان كلام الخلق المدرج في القرآن، قرآنا. فلولا النسبة التي ذكرناها، ما صح ذلك.

وكلاهما، يدخل في باب الفهم عن الله.

وقد أغفل الناس علم التأويل، حتى أصبح إنكاره سمةً للعلماء، بسبب قلة رجاله بين الناس، وقلة تداوله؛ مع أنه علم شرعي، مما ينعم الله به على خواص عباده. فانظر ما أقبح هذا الارتكاس!

واعلم أن الرجل لا يكون له قدم في علم التأويل، حتى تكون له دُربة بالمعاني. ونعني بها المعاني المجردة، يدركها في حال تجردها. فإذا علمها، تتبعها عندما تنزل في قوالب الصور والألفاظ. وهي كلها صور، إما حسية أو خيالية، مما يسميه الناس صورا معنوية، كالتي تتضمنها الأشعار والحكم والأمثال، وغيرها.. فإذا أراد أن يؤول الكلام، عاد به إلى المعنى المجرد الأصلي. فيكون قد عاد إلى أول مستواه.

أما المعاني التي تطرأ في المستوى الثاني فما بعده، فإنه قد يدخل عليها ما تعطيه الألفاظ من ذاتها، أو ما تعطيه الصور. وهذا التركيب هو الذي يعطي البعد عن المستوى الأول للمعنى. فيكون التأويل عودة إلى بساطة المعنى. فإذا أردت أن نقرب لك ما نقول بمثال، فاجعل المعنى في أصالته كالجسد، واجعل تنزله في الألفاظ المركبة والصور له كالثياب. واعلم أن ما تدركه من الجسد عند لبسه الثياب هو صورة تقريبية، تقل مطابقتها كلما كثرت تلك الثياب على الجسد. فيكون التأويل هنا، هو تجريد الجسد من ثيابه حتى يراه على أصله، بتفاصيله وبدقة وصفه.

وتأويل الرؤيا، يكون هو تفكيك عناصرها (أجزائها)، والعودة بها إلى معانيها المجردة، كما كانت في حالها الأول، عند إدراك الروح لها.

هذا من حيث الكلام على عموم المدلول؛ أما إن عدت إلى مقام الناظر في الكلام، فإنك ستعلم أنه لا يستطيع كل أحد أن يؤول الكلام، إلا إن كان المؤول متحققا بالحق. فإنه وقتذاك، يأخذ المعنى الأول من الأول، الذي هو الحق. فدل هذا على أن التأويل لا يكون إلا للمحققين من الورثة؛ وعلمنا أن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما هو منهم. تحقيقا من الله لـ"نظرة" رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيه. فانظر ما أثبت هذا العلم ومرتبته في الدين، وانظر ما أبعد الأمة عنه!

وقد كان من عدم معرفة الفضل لأهل التأويل، أن جمد أغلب المسلمين، على بعض فهوم السلف، فتخلفت الأمة عن الفهم الطري الذي هو شرط في تجديد الدين. وصارت تعاني عنتا من جراء شدها إلى الماضي، وهي تعيش الحاضر، محرومة من العلم الذي يحدثه الله في عباده في كل زمن. لا يتخلف زمن في ذلك عن زمن.

أما تأويل كلمات الله التي هي المحدثات، فهو العودة بها إلى الأسماء الإلهية التي هي آثار لها. فيشهد ما يحدث بين الأسماء من تضافر وتآزر أو تصارع وتضاد. فيعلم من ذلك تجليات الحق لنفسه بها، التي هي الشؤون الإلهية نفسها المظروفة في كل زمن فرد. وهذا من علم الأسماء الذي لا يكون إلا للذاتيين. وهو أليق بمقام الأنبياء

عليهم السلام كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾. ومن هنا قيل: إن الحسّ المشهود عند اليقظة، يحتاج إلى تعبير، كما الصور التي يشاهدها النائم في الرؤيا. ومن هنا أيضا تفهم لمَ قال اليهودي لسيدنا علي عليه السلام يوم خيبر، لما أخبره باسمه:"علوتم وما أنزل على موسى"، يقسم على أن النصر سيكون حليف المسلمين. استنتج ذلك من اسم "علي" فحسب. ومن هذا الباب أيضا تغيير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأسماء لبعض أصحابه لما كانت معانيها سيئة. فقد ورد في الحديث « أنه عليه الصلاة والسلام غير اسم "عاصية" (بنت سماها أهلها عاصية) إلى "جميلة"»[128]، و« أتي برجل يقال له "أصرم" (من الصرامة)، فسماه صلى الله عليه وسلم "زُرعة"»[129]. وعن سعيد بن المسيب عن أبيه: « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجده: ما اسمك؟ قال: "حَزَن". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أنت سهل. فقال: لا أغير اسما سمانيه أبي!»[130]. يقول سعيد بن المسيب رحمه الله: فما زالت تلك الحزونة فينا بعد. وهي الشدة والصلابة والعسر، لما لم يقبل جده تسمية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له. ومن

---

128 . أخرجه مسلم.
129 . أخرجه أبو داود.
130 . رواه أحمد في مسنده.

هنا أيضا أمْرُه صلى الله عليه وآله وسلم لبعضهم بتغيير سحناتهم لما كانت قبيحة. ففي الحديث، عن عطاء بن يسار قال:« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية. فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، أن اخرج. كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته. ففعل الرجل ثم رجع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟!»[131]. و"شَطَنَ" في اللغة بَعُدَ، والبعيد لا يليق بمجالسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فانظر ما أشرف هذا العلم! وانظر كيف انتهى بالأمة تقليد الكافرين، إلى اعتبار مثل هذا، من المرض "النفسي" والهوس.

[131] . أخرجه مالك في الموطإ.

الفصل العاشر
ولادة المريد واستكمال السير

إن المريد في فترة تربيته على يد شيخه، يكون كالجنين في بطن أمه. يتغذى من طعام شيخه وشرابه. وهو ما عنيناه بمدد الشيخ فيما قبل. فإذا اكتملت تربيته وتمت صورته، فإنه يخرج من رحم أستاذه إلى إطلاق ربه. وينقطع حبله السُّرّي المعنوي، فيستقل بنفسه في استمداده. ويصير هو وشيخه يستمدان من نفس المشكاة، وهي المشكاة المحمدية. واستمداده من الحقيقة المحمدية يكون بواسطة الختم، علم ذلك أم لم يعلمه. وهذه المرحلة هي المعبر عنها بالسلوك الثاني.

والولادة كما هي مؤلمة فيما يتعلق بالولادة الطبيعية، فهي أيضا مؤلمة فيما يتعلق بالولادة المعنوية. وعسرها يكون على المريد بسبب إلفه الاستناد إلى شيخه في كل شيء، وفي تمكن صورة شيخه من باطنه. وقد جاهد كثيرا حتى يحصل له ذلك. فلما اطمأن، وظن أنه قد استوفى الشرط، يجد نفسه مطالبا بالانفصال. فيصيبه

من الألم بقدر ما كان له من الاتصال. وهذا مقتضى الحقيقة، لا مفر له منه. ومن هنا قيل: "أسدان، لا يلتقيان"، لأن لكل واحد منهما مجالَ تصرّفه بمنأى عن الآخر. والمريد الصادق، قد يردّ داعي الانفصال كثيرا، استبراء لنفسه، وهو من تعود مخالفتها ومجاهدتها؛ وخوفا من تسويلها ما ليس من طورها، ومن تلبيس إبليس عليه. لكن أستاذه ـ إذا علم منه صحة المقام ـ يعينه بتنفيره وإبعاده. وفي النهاية يجد نفسه منفردا بالحق، بعد أن كان لا يراه إلا في مرآة شيخه.

من هنا تعلم، أن المراد من الشيخ، هو التربية لا نفس الشيخ، كما يظن الجاهلون. ولو كان الشيخ يمسك المريد معه أبدا، لكان يدل على نفسه لا على الله. نعني إن كان يفعل ذلك مطلقا، ومن غير مراعاة أصول الدلالة على الله. وهنا غلط كثير من أدعياء التشيخ، ومن المريدين. فمن شيوخ الارتزاق من يبقي الناس معه طول عمره، بل حتى بعد أن يغادر الدنيا. ويزعم أن هذا من قواعد الطريق التي لا محيد عنها، وإلا بشر المريد المخل بها بسوء المنقلب وبئس المصير. والمريدون، يبقون مع شيخهم، فإذا انقلب إلى الآخرة، بقوا معلقين. لا هم مكملون لسيرهم، ولا هم كعامة الناس. ويظنون أن كل خطور لغير شيخهم على قلوبهم، هو من الكبائر القاطعة عن الله.

وما فطن المساكين أنهم في عين الحجاب و الانقطاع. وقد التقينا في زمن إرادتنا، رجلا ممن كان قد حصل مع شيخه المتوفى (وكان ربانيا محقا) مراحل من الطريق، وبقي في أسوء حال بعده. لا يتكلم إلا عنه، ولا يستشهد إلا بكلامه. فلما علمنا حاله وانقطاعه، كلمناه في إتمام مسيره ووجوب ذلك عليه. فقال، والدموع تسيل من عينيه: "أنا أفهم ما تقول، ولكن لا أستطيع". فتركناه لحاله.

وقد جاء هذا الخلط لدى بعض الشيوخ والمريدين معا، من عدم التمييز بين مراتب الحق:

أولا: ينبغي أن تكون صحبة المريد للشيخ، على نية أن يكون الشيخ وسيلته إلى الله. هذا الأصل، يحفظ للمريد توجهه إلى الحق من غير انحراف. فمن صاحب شيخا لمجرد موافقة الناس، أو كان له غرض معه، فقد فتح على نفسه أبواب الفتنة.

ثانيا: عندما يتجلى الحق للمريد في شيخه، فعليه أن يعامله بما يليق، من غير أن يتكلف علم حقيقة ما يطالعه قلبه. فإن العمل هنا يكون على مقتضى التربية، لا على مقتضى الحقيقة. ومن تطفل هنا على علم الحقيقة، حُجب عن شيخه، وبالتالي عن الحق. وقد انقطع هنا خلق كثيرون، وما علموا من أين أُتوا. وجل من ينقطع من المريدين، فمن هذه المرحلة. سواء بقي الشيخ في الدنيا أم رحل

عنها. ولهذا قيل: "ما رجع من رجع إلا من الطريق، أما الواصل فلا رجعة له".

ثالثا: إذا تحقق المريد بمعنى الوصول، يصير إلى بر الأمان. ومعرفة الحق عنده هنا أوسع من معرفته السابقة، وأصح. فهي مطابقة لحكم الحقيقة. وأحكام التربية التي كان عليها في المرحلة السابقة، تصبح في حقه حجابا، وجهلا، إن هو تمسك بها. وعموما فالواصل لا خوف عليه.

وعدم التمييز بين هذه المراحل، وبين مقتضيات التربية وسياسة النفس من جهة، وأحكام الحقائق من جهة ثانية، أدى إلى ما يشبه التشوه في طريق أهل الله، عند من ينظر من خارج؛ وأدى إلى عكس المراد من السلوك أحيانا، أي إلى الحجاب، عند من ينظر من داخل. وهذا الحجاب أشد من حجاب العاصي، والمبتدئ؛ لأنه حجاب بالحق عن الحق.

أما أهل التبرك من الشيوخ والمريدين، فأولئك هم أصحاب الطوامّ الكبرى. فلا الشيخ يدل على الله، ولا المريد قاصد وجه الله. وإنما هي معاشرة على أنواع الألحان والرقص؛ وصنوف الكلام الأجوف، الذين يأخذونه عن بعضهم أو من الكتب عن غير علم بوجوهه، أو بالمقامات التي تُكُلِّمَ منها به. فيلبسون ثيابا زورا، ويفترون على الله

كذبا، ويزاحمون الدعاة إلى الحق بالباطل. فهؤلاء هم شر من ينتسب إلى هذه الطائفة. يحاربون الله ورسوله، في صورة الذاكر الشاكر. ظلمتهم بادية لأولي البصائر. فضحهم، من أوجب الواجبات والشعائر.

ومن أجل أن تتبيّن الأمر من أصله، وينقشع عنك ضباب الوهم الذي أصاب بعض الخلف، حتى حادوا عن طريق السلف، فإنا سنذكر لك ما وقع عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وقائع، ونجلو لك ـ بإذن الله وحده ـ ما تحتها من أحوال بواطن كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، حتى تطابق ما أنت عليه بما كانوا عليه. فإن حالا لا يجد له أصلا فيهم رضي الله عنهم، لهو من البدع الضارة، والمشارب المهلكة. فقد جاء في حديث افتراق هذه الأمة، في صفة الفرقة النّاجية:«...ما أنا عليه وأصحابي»[132]؛ أي، ما أنا عليه من إمداد، وما عليه أصحابي من استمداد. وهذا عندنا أصل من أصول الدين.

فقد ذكر أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف، عن ابن هشام:

[ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها، وغيرها من الصحابة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما قُبض، وارتفعت الرنة، وسجى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الملائكةُ؛ دهش الناس، وطاشت عقولهم، وأقحموا واختلطوا. فمنهم من خبل، ومنهم من أصمت، ومنهم من أقعد إلى أرض. فكان عمر

[132] . أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو.

ممن خبل، وجعل يصيح ويحلف، ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم.] اعلم أن عمر رضي الله عنه ما كان ضعيف العقل، حتى يُتصور منه وقوع ما وقع. وإنما حدث له ذلك ـ رضي الله عنه ـ لأنه كان يشاهد الحق في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والحق لا يموت! لذلك كان يقسم رضي الله عنه على ذلك. وهذا من شدة يقينه.

[وكان ممن أخرس عثمان بن عفان حتى جعل يُذهب به ويُجاء ولا يستطيع كلاما. وكان ممن أقعد علي رضي الله عنه، فلم يستطع حراكا. وأما عبد الله بن أنيس، فأضني حتى مات كمدا.] حالهم ـ رضي الله عنهم قريب من حال عمر.

[وبلغ الخبر أبا بكر رضي الله عنه وهو بالسنح. فجاء وعيناه تهملان، وزفراته تتردد في صدره، وغصصه ترتفع كقطع الجرة؛ وهو في ذلك رضوان الله عليه، جلد العقل والمقالة، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.] الفرق بين أبي بكر وقتها، وبين باقي الصحابة، هو المقام. فقد كان أبو بكر أعلم الجميع بالله. وهو ما يصطلح عليه أصحاب الطريق بالرسوخ والتمكّن. ولو تُرك الأمر للظاهر، لظن الناس أن غيره كان أشد محبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه. والأمر غير ذلك! بل لقد كان أشدهم حبا بلا ريب. لكن لا بد أن نبيّن لك أن المفاضلة التي نقوم بها هنا، إنما تنحصر في ذلك الوقت فحسب؛ بسبب أن الصحابة

رضي الله عنهم كانوا في ترقٍّ مستمر. وإن من عمموا في المفاضلة وأطلقوا، قد أخطأوا من غير شك. فتنبه لما نلقي إليك. والدليل على أنه كان أشدهم حبا في ذلك الوقت ـ والمحبة تكون على قدر العلم ـ هو ما سيقوله عند دخوله على سيده صلى الله عليه وآله وسلم.

[فأكب عليه وكشف وجهه، ومسحه وقبل جبينه، وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي! طبت حيا وميتا! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة. فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء. وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء. ولو أن موتك كان اختيارا، لجدنا لموتك بالنفوس. ولولا أنك نهيت عن البكاء، لأنفدنا عليك ماء الشؤون.] انظر ما أكمل علمه رضي الله عنه! لم تدهشه عظمة مشهده في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عن مراعاة الأدب مع أمره ونهيه. واعلم أنه ما كان ليستطيع كل ذلك لولا ميراثه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فكان أبو بكر هنا مظهرا لرسول الله، كما تظهر الصورة في المرآة. فإياك أن تفهم غير هذا، وتُحجب بما تظنه العامة من جلد ورباطة جأش! فأي جلد يبقى مع موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كانوا يحيون به! ويواصل رضي الله عنه مناجاته:

[فأما ما لا نستطيع نفيه، فكمد وإدناف يتحالفان، لا يبرحان. اللهم أبلغه عنا، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك. فلولا ما خلفت من السكينة، لم

نقم بما خلفت من الوحشة. اللهم أبلغ نبيك عنا، واحفظه فينا.] كل هذا الكلام المشحون بالعلم والمحبة، يؤكد ميراثه. وقد أشار رضي الله عنه إليه بالسكينة. فاعلم من أين جاءت، ولمَ خُصّ بها رضي الله عنه. ولاحظ قوله رضي الله عنه: "واحفظه فينا"، لتعلم من المتجلي فيه!

[ثم خرج لما قضى الناس غمراتهم، وقام خطيبا فيهم بخطبة جلها الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.] قيامه رضي الله عنه بالله، في مقام الخلافة التربوية قبل الخلافة العامة.

[وقال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه.] بدأ رضي الله عنه بمحور الأمر وقطب رحاه، وهو التوحيد. في أعلى درجات الصّدّيقية، ذوقا وشهودا. إطلاقا إلهيا، وتقييدا نبويا ختميا. فما أوسعه من مشهد!

[وأشهد أن الكتاب كما نزل]، يُعلم رضي الله عنه أنه وارث، والسرّ ليس له بالأصالة. [وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدّث، وأن القول كما قال. وأن الله هو الحق المبين.] أعلن رضي الله عن مقامه في أحسن عبارة. وختمها بذكر من به قيامه، وهو الحق؛ الذي تقوم به الأشياء، ولا يقوم بشيء. سبحانه! ..في كلام طويل، ثم قال:

[أيها الناس! من كان يعبد محمدا، فإن محمدا قد مات] يعني رضي الله عنه: من كان يعبد مظهر محمد فإن المظهر متحول. [ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لم يمت]، أي ومن كان يعبد الحق الظاهر، فإن صفته الحياة التي لا يقابلها موت. سبحانه! وهذا الكلام ترقية لكل الصحابة الذين كانوا تحت وقع الصدمة.

[وأن الله قد تقدم لكم في أمره، فلا تدعوه جزعا؛ وأن الله تبارك وتعالى قد اختار لنبيه عليه السلام، ما عنده على ما عندكم؛ وقبضه إلى ثوابه. وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه. فمن أخذ بهما **عرف**، ومن فرق بينهما **أنكر**. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [133]] أي إن الله قد أخبركم بأمر نبيكم،فعودوا إليه منيبين غير جزعين. وذكر لهم ما فيه عزاء لهم، من كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ربه، حتى يزنوا الأمر بالعقل الشرعي، لا بما تعطيه العادة. وذكر لهم ما خلف لهم نبيهم من الهدى كتابا وسنة. وتأمل معي قوله رضي الله عنه: "فمن أخذ بهما عرف" لتعلم أن غاية النظر في الكتاب والسنة، معرفة الله؛ وقوله: "ومن فرق بينهما أنكر" لتعلم أنه ينبه إلى كون الكتاب والسنة من مصدر واحد، وهو الحق في مرتبتين. وينبه من يتوهم الفرق بأن مآله إنكار الحق. ولو تتبعت حال من يدعي توحيد الله

[133] . النساء: 135.

الخالص في الأزمنة المتأخرة، ورأيت كيف يفرقون بين الألوهية والنبوة بما تنتجه عقولهم السقيمة، ورأيت النتيجة التي آلوا إليها، من انحجاب عن الحق وروح الدين، لعلمت مبلغ علمه رضي الله عنه، ومدى نصحه للأمة.

[ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم] هذا كلام المربي الخبير بالأدواء والعلاجات. فإن الشيطان من مكائده، أن يشغل طالب الحق بما ظاهره حق، ليصرفه عنه. فالاشتغال بوفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لا يرى فيه المسلمون بأسا؛ لكن المربي رضي الله عنه، يرى فيه انشغالا عن الحق. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليس هو غاية الطالب، من حيث ما هو نبي، وإنما الغاية الله. وقد أسس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الأصل بالقول وبالعمل. فانتبه لما نقول، وانظر كيف شغل الشيطان بعض الفئات ـ فيما يبدو ـ بالنبي أو بآل البيت، أو بالصحابة ـ فحجبهم عن الحق. ولو تتبعت أكثر العصبيات، لوجدتها من هذا الباب. ولا تستشكل ما نقوله هنا، بعد أن ذكرنا في مواضع أخرى أن الناس ما يشهدون الحق إلا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك أن ما نذكره هنا، هو من باب التربية وتصحيح التوجه؛ وما ذكرناه هناك هو من باب الحقائق. وقد نبهناك في غير ما موضع إلى التفريق بين المأخذين.

[ولا يلفتنكم عن دينكم]، الذي هو نهج نبيكم حقا. والشيطان يلبس على الناس كثيرا، حتى تجد من ينتسب إلى مذهب أو إلى إمام، قلما يكون عمله مطابقا لزعمه. فكأن الشيطان يترك للناس الجراب، ويسلبهم ما فيه. ولا يفضح مثل هذا التلبيس، في مثل هذا الموطن، إلا من يرى بنور الله.

[وعاجلوا الشيطان بالخزي تُعجزوه، ولا تستنظروه فيلحق بكم]: من شرط المربي، أن يعلم كل مداخل الشيطان، ويعلم كيف يسدها عليه. والصّدّيق رضي الله عنه، ينبه هنا إلى أصل من الأصول. وهو معاجلة الشيطان بالمخالفة، وعدم النظر فيما يلقي، من الوهلة الأولى. فإن من يفعل هذا، يُيئسه منه؛ أما من يتوقف ولو قليلا، ويبحث ما يعرض له، فإنه يمسك بقياده، ولو اضطره ذلك إلى تغيير إلقائه في كل مرة. بسبب أنه أطمعه فيه. وما يعمل على هذا الأصل إلا أفراد المقربين!

[فلما فرغ من خطبته، قال: يا عمر، أأنت الذي بلغني عنك أنك تقول على باب نبي الله: والذي نفس عمر بيده، ما مات نبي الله؟! أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يوم كذا، كذا وكذا..؟ وقال الله عز وجل في كتابه:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[134] ؟ فقال عمر: والله لكأني لم أسمع بها

[134] . الزمر: 30.

في كتاب الله تعالى قبل الآن، لما نزل بنا. أشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الحديث كما حدّث، وأن الله تبارك وتعالى حي لا يموت. إنا لله وإنا إليه راجعون. صلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله.] يرقي سيدنا الصديق، سيدَنا الفاروق رضي الله عنهما. يذكره بقول الله وبقول نبي الله. الوحي المعصوم! لكن تذكير وارث، لا تذكير محجوب. فلما ذاق سيدنا عمر الآية، شبه تلاوته لها سابقا بالمقارنة إلى الذوق، بعدمها. من هنا تعلم أن التلاوة المقصودة عند أهل الله، هي هذه. وانظر في خلال كلام عمر الرّجّاع إلى الحق، كيف ذكر "أن الله تبارك وتعالى حي لا يموت"، لتعلم ما كنا قد دللناك عليه من مشهده في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإياك والانحجاب بالتوحيد النظري، فإنه عندنا شرك. ونحن قد دللناك على الطريق، وأنت ولي أمر نفسك.

من هذا الوقت، علم عمر رضي الله عنه خلافة أبي بكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهو ما جعله يسارع إلى مبايعته رضي الله عنهما، عندما كان المهاجرون والأنصار يتداولون الكلام في الأمر. من هنا تعلم أن خلافة أبي بكر لم تكن عن رأي رآه عمر كما يزعم الزاعمون، وإنما كانت عن كشف إلهي له بوراثة الصديق.

وفي سياق الحديث عن الخلافة، نحب أن نكرر التنبيه إلى أن التفضيل بين الصحابة رضي الله عنهم، لا يكون إلا محصورا في زمن

بعينه. وذلك لأن الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم قد بلغوا كلهم مرتبة الخلافة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحققت لهم الوراثة. وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكل منهم بفضله على غيره. والواجب علينا، أن ننظر إليهم من أسفل، نظر الخدم لأسيادهم من غير تمييز. وما نراه اليوم، من تمسك كل طائفة بأحقية واحد دون آخر بالخلافة، لهو من البدع التي شغلهم بها إبليس، بسبب عدم تفطنهم إلى ما نبه إليه الصّدّيق في خطبته، رضي الله عنه، وجزاه خيرا عن الإسلام والمسلمين.

ذكرنا لك هذا الجزء، حتى تعلم أصل الإسلام كيف هو، قبل أن يتفرع فيه الكلام وتكثر الأقاويل. ولتعلم أن التزكية المقتضية وجود الوارث النبوي، وطلاب الحق، هي الصورة الأصلية للتدين. ولتعلم أن العلم كان يؤخذ من قلب عن قلب، لا من أذن عن لسان فحسب. ولتعلم أن معيار إصابة الحق من عدمها هو وجود الحق شهودا، وذوقا؛ لا رأيا نجتمع عليه، ونحارب به إخوانا لنا في الدين. والزّكي من زكاه الله!

الفصل الحادي عشر
آداب المريد

الأدب في الطريق مقدم على كل شيء. فمن أوتيه أوتي الخير كله، ومن حُرمه، حرم الخير كله.

والأدب بالنسبة إلى المريد يتعلق بجهاته الست: فأدبه من جهته العليا، يكون مع الله ورسوله ثم الشيخ؛ ومن جهته السفلى، أدبه في نفسه. أما من الجهات الأربع الباقية، فعن اليمين، يكون مع أقرانه، وعن الشمال يكون مع المخالفين؛ ومن أمام يكون مع من له السبق عليه في الطريق؛ ومن خلف، يكون مع المتخلفين. ولنبدأ بأدبه في نفسه، لأنه أصل كل أدب بعده.

1.أدب المريد في نفسه:

أدب المريد في نفسه يكون بمراعاة أصلها الذي هو السفل. ولا أسفل من العدم. لكن بما أن المقام حاكم على النظر، فإنا سنجعل الكلام في الأدب على ثلاثة أقسام: قسم متعلق بالمبتدئ، وقسم متعلق بالمتوسط، وقسم متعلق بأصحاب النهاية.

ا ـ أدب البداية:

أما المبتدئ، فيلزمه الوقوف على عجزه وفقره. ويكون ذلك بالصدق مع نفسه، وعدم خداعها. وإذا أراد أن يتم له الأمر، فليقارن ما هو عليه علما وعملا، بما ذكره الله في كتابه، أو ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته. وليعرض حاله على أحوال الصحابة والتابعين ظاهرا وباطنا. فإن هذا سيجعله يقف على حقيقته المؤلمة، والتي تكون سببا في نهوضه وجِده، إن شاء الله. أما إن قال في نفسه: أولئك قوم اصطفاهم الله، وما نحن إلا مساكين نرجو أن يمن الله علينا بالعفو (وهو الحق، لكن ما كل حق ينفع)، فإنه يكون خائنا لنفسه، ساعيا في بوارها. ولعلك قد استشعرت أن هذا الأدب، لا يخلص إلا لذوي الهمم العالية.

ب ـ أدب الوسط:

أما المتوسط، فعليه أن يعمل وفق علمه من نفسه. ولا يكون ذلك إلا بمعاكسة صفات الاستعلاء التي كان قد اعتاد عليها، بصفات الانخفاض. وحتى يفوز بما يأمل، عليه أن يكون ظالما لنفسه، إذا تقابل حقها مع حق غيرها. وليقصد الأماكن التي يهان فيها، أو على الأقل لا يؤبه له فيها، إن كان قد اعتاد التكريم، وكانت له وجاهة. وهذه المرحلة حقا هي مرحلة المجاهدة والمصابرة. فمن ثبت

واحتسب، فإنه سيجد نتيجة كل ذلك عسلا مصفّى. ومن تقهقر ولم يحتمل مرارة الذل، فإنه سينقطع.

غير أنه لا بد أن نذكر، أن محو صفات النفس لا يكون دفعة واحدة. ولكن على المرء أن يتدرج فيه شيئا فشيئا. والعمل على هذا تحت نظر الشيخ هو المعتبر؛ لأن الدواء الذي تقدمه النفس لصاحبها، يعود بعكس المطلوب. فعوض أن يمحو صفات النفس، يقويها، ويزيده بعدا من ربه بدل التقرب. والوقوع في العجب يكون بمثل ما ذكرنا. وقد استهان بهذا الأصل قوم، فصاروا عبرة لغيرهم وإن لم يشعروا بسوء حالهم. فإن الشعور من علامات التوفيق.

ج ـ أدب النهاية:

أما أصحاب النهاية، فقد تخلصوا من هذا العبء، لأن نفوسهم سقطت في العدم. فارتاحوا من أصل البلاء كله. لكن يكون أدبهم بإبقاء رسوم العبودية في الظاهر، سترا لأنوار وأسرار الباطن. وبقدر إبقاء الرسوم، يكون تمام الأدب. وبقدر تمام الأدب تكون الزيادة في الرفعة.

والأدب المقابل لهذا الصنف الأول هو الأدب مع العلْو.

2. الأدب مع الحق:

الأدب مع الحق في مراتبه الثلاثة: مع الله ورسوله، ثم الوارث. وقد جمعنا هذه المراتب الثلاثة تحت مسمى واحد هو الحق، لندلك على أن الجمع هو الأصل، ونجنبك تفريق الوهم الذي يبعُد بك. والمريد الصادق من علاماته، أنه إذا التقى الشيخ الرباني، فإنه يسكن لوجوده الحق. يجد هذا من نفسه دون علمه بالمراتب وما تعطيه الحقائق. أما من غاب عنه هذا الوجد، فيصعب أن يهتدي إلى الصواب. وسيبقى من عامة الناس، ما دام على هذه الحال، وإن لازم الشيخ مدة عمره. فتوحيد التوجه في البداية عندنا، هو بذرة توحيد شهود النهاية. وأقل ما يساعد المريد به نفسه، أن يتصور خلف الصورة الحسية للشيخ، غيبا اسمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخلف هذا، غيبا اسمه الله تعالى. بمعنى أن تكون كل الصور العقلية عنده على خط واحد. أما من كانت عنده صورة الشيخ خارج الخط الذي عليه الله ورسوله، فما هو ممن نعني بكلامنا. وإن أمسكه الشيخ معه، فلتكميل استعداده حتى يحتمل توحيد التوجه، لا لإقراره على ما هو عليه. فإن الشيخ لا يقر أحدا على شرك. فاعلم هذا! ولا يغررك وحدة الصور عند مختلف الأشخاص؛ فالعبرة بالمكانة العلمية. ومن لا يميز هذه الأمور، فقد يقع في تقليد المريدين غير الأسوياء، فيُحجب إلى ما شاء الله. ولكن، كلما قوي صدقه، رزقه الله

الشعور بأثر عقائده على قلبه؛ حتى يصير يميز بين القرب والبعد من ذلك الشعور. وقد أكرمنا الله بهذا التمييز قبل الانخراط في الطريق، وكان سببا لنا في دخولها، ولله الحمد.

ا ـ أدب البداية:

على المريد أن يعتقد أن شيخه ولي لله، وهو أعلم منه بالصواب في كل أمر. فلا يخالف له توجيها، وإن لم يقف على الحكمة فيه. فإن المريد الذي لا يقبل من شيخه إلا ما فهم منه، فما هو مريد في عرف الطريق.

ويكون تعامله في عامة أمره وفق الشرع، فإذا منعه الشيخ من القيام بمستحب، أو خالف به عن الأوْلى، فليلزم توجيه الشيخ، لأنه لا بد له من حكمة في ذلك تعود على المريد بالنفع؛ ولا يقل: إن الشيخ خالف الشرع، فيُمقت. وكثير من الناس هلكوا من عدم مراعاة حرمة الشيوخ. يظنون أنهم كغيرهم. لا والله! فإنه كما يحيى بهم من يسلّم لهم، يموت من يسيء الأدب معهم. ولا تغتر إذا لم تر عقوبة ظاهرة. فإن تخلفت الظاهرة، فالباطنة لا تتخلف. ونحن ننصحك حتى تنظر لأمرك وتنتصح.

وفي هذه المرحلة، يكون الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بتعظيم كلامه، وتصديقه بالعمل؛ وبتوقير الصحابة رضي الله

عنهم وآل بيته، ومعرفة حقوق كل مسلم، برا كان أم فاجرا. أما الأدب مع الله، فيكون بتصديق كلامه حقا، والائتمار بأمره، ومراعاة حقوق الخلق أجمعين مؤمنهم وكافرهم.

ب ـ أدب الوسط:

في هذه المرحلة، يكون المريد مشاهدا لحقيقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شيخه. فإن تبدّت له، فينبغي أن يعاملها بما أمر الله الصحابة من آداب، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾[135]. وعلى العموم، يكون حال المريد هنا كحال الصحابة، غير أنه لا يعدّ منهم. وليعمل على الاقتداء بهم ـ رضي الله عنهم ـ في معاملتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وليجعلهم أئمة له، بحسب ما يعطيه استعداده. فإن

[135] . الحجرات: 1 - 5.

الله قد جعل أصحاب نبيه على استعدادات مختلفة، حتى يجد كل مقتد من يناسبه منهم في التأسي.

أما من تجلى له الحق في مظهر شيخه، فليعامله بما يتوجب من آداب، كالسمع والطاعة، والموافقة وأخذ الأمر على وجه الوجوب، والنهي على وجه التحريم.

وعلى العموم، في هذه المرحلة تنطوي معاملة الله ورسوله في معاملة الشيخ. وهذا لا ينفي المعاملة الإيمانية التي كانت للمريد في سابق مرحلة، وإنما تنضاف معاملة جديدة، هي المعاملة على الشهود. وهذا أتم في المعاملة!

ج ـ أدب النهاية:

أما أدب النهاية، فيكون بعد تحقق الواصل بالحق في نفسه. فإذا فعل، وجب عليه مراعاة الحق في نفسه. وهنا تنطوي معاملة الله ورسوله، في معاملته نفسه؛ بما يعطيه الإيمان، وبما يعطيه الذوق. والإيمان، كلما توسعت دائرة الذوق وزحفت عليه، توسعت دائرته هو وزحفت في اتجاه الغيب. فالإيمان باق أبدا، والغيب باق أبدا، والفرق في سعة الدوائر فحسب. وقد قال بعض أهل الله، بأن الإيمان يصبح شهادة عند النهاية، فأخذه السامعون على إطلاقه؛ وما عنَوْا بكلامهم

إلا ما زحف من الشهود على منطقة الإيمان، كما بيّنّا. فإياك أن تُحجب بالحق عن الحق!

والكلام هنا قد يطول، ونحن لا نريد أن نشغل المريد بما يخرج عن طوره. فإذا تحقق بما ذكرنا، أمكننا الكلام وقتئذ فيما يلزم المقام بالتفصيل.

3. أدب المريد مع من سبقه في الطريق:

ا ـ أدب البداية:

لا يخلو المريد في زمانه من لقاء من سبقه في الطريق. ونعني بهم السابقين له في المقام. فإذا كان في حضرتهم، فليعتقد كونه خادما لهم وإن لم يُمكّنوه من خدمتهم. وإن هم تكلّموا، فليسمع لكلامهم ولا يتطفل عليهم، وإن كان كلامهم يبدو أدنى مما يعلم في نفسه؛ فإن الأمور لا تُؤخذ بظاهرها عندنا. فإن أراد أن يستفسر عن شيء، فليستأذن في السؤال أولا. وإن رأى أو سمع منهم ما يخالف الحق عنده، فليعرض عليهم ما لديه من غير اعتراض. فقد يكون لما لديهم وجه حق لا يعلمه. وليشكر الله الذي جعلهم يقبلون بمجالسته. وليراع حرمتهم في غيابهم، فلا يعاملهم في غيابهم بما يخالف معاملته لهم في حضورهم. فإن ذلك يُدخله في النفاق ويبعده من الحق. ولينافح عنهم إن وُجد في حضرة من

يغتابهم أو ينقص من قدرهم، وإن أصابه ما أصابه في سبيل ذلك. فإن رأى من الشيخ إعراضا عنهم، أو توبيخا لهم، فلا يعتبر ذلك؛ ولا تنقص قيمتهم عنده إلا إن أمره الشيخ بأمر يخصه. فإن سمع من يقدح فيهم بحضرة الشيخ وهو يعلم خلاف ذلك منهم، فليدل بشهادته فيهم بعد استئذان الشيخ؛ فإنه يُسأل عنها. وهذا وأمثاله من الآداب الشرعية العامة، أي التي لا ينبغي تركها بزعم الخصوصية.

فإن تعرض المريد للأذى ممن يسبقه في الطريق، فلا ينتصر لنفسه، إلا إن كان في سكوته تبعات من رد حقوق وما شابه؛ فإنه يدفع عن نفسه بقدر ذلك. ونعني بالتبعات، ما يُدخل خصومه في دائرة الظلم. وليعتبر غلظتهم معه من باب عنايتهم به. ولا يتغير باطنه عليهم مهما فعلوا معه أو قالوا له. فإن نعتوه بصفة ذميمة، فليشكر لهم بباطنه على نصيحتهم، ولا يقل هم يجهلون حقيقتي، مخطئون في حقي. فإن الله هو من أنطقهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾[136]. وليقتد بهم فيما يكون من طوره، وليجعلهم حافزا له على الاجتهاد والجد. فإن رأى منهم غير ذلك، فلا يقتدي بهم فيه، ولا يتكلف فهم حالهم. فإنه من الفضول المذموم. وإن أخروه فليتأخر؛ وإن قدموه فليتقدم من غير أن ينظر أهلية في نفسه لذلك،

[136] . فصلت: 21.

وليعده من ابتلاء الله له. ولا يرفض تقديمهم له، لأنه سيدخل تحت حكم نفسه.

ب ـ أدب الوسط:

على المريد هنا أن يعامل من سبقه بما يقتضيه علم خصوصيتهم. فيعاملهم على أنهم أولياء لله وإن لم يظهروا بالولاية في الناس. وليجعل ولايتهم من ولاية شيخه وخصوصيته حتى لا يتشتت توجهه. وليستفد من علومهم بالطريق معتقدا أنهم أسباب بيد شيخه. ولا يتقيد بعلمهم إن كان يخالف حاله ومقامه، من غير أن يعترض عليهم. ولا يكتف بترديد كلامهم من دون ذوق، فإن ذلك يقطعه.

ج ـ أدب النهاية:

ينتفي الأدب هنا بانتفاء الغيرية.

4. أدب المريد مع المتخلفين:

ا ـ أدب البداية:

في البداية لا ينبغي للمريد أن يرى أحدا من الخلق دونه، بل يقدم على نفسه كل الناس، حتى العامة. فإن تعين عليه واجب النصيحة الشرعية، فليكن نائبا عن الشرع بلسانه، وليعد نفسه أجنبيا عن كلامه، حتى لا يخالطه زهو أو عجب. فإن وقع فيهما، فليسارع

إلى التوبة، والجزم بأفضلية غيره عليه وإن ظهر خلاف ذلك. فإن عيوبه عند نفسه متيقنة، وعيوب غيره عنده مظنونة؛ وأحوال نفسه عنده معلومة، وأحوال غيره مجهولة. فلا يحكم بالظن ويترك اليقين الذي عنده. فإنه من يفعل ذلك، لا يفلح أبدا.

ب ـ أدب الوسط:

يعامل المريد هنا المريدين الذين هم أقل منه مقاما، بحسن الإرشاد، ورفق النصيحة. وليعتمد التيسير والتبشير حتى لا يقنطهم، وليذكر لهم من حال بدايته بقدر ما يؤدي إلى نهوضهم ومسارعتهم في الطاعات. وليعتقد في نفسه أنه يعاملهم بحسب ما يعطي الظاهر، أما في الحقيقة فلا يعلم إن كانوا أحسن حالا عند الله منه. وليعتبر الخاتمة، فكم من سابق صار مسبوقا. وليستشفع بهم عند ربه في باطنه صدقا لا تكلفا، فإنهم أقل مخالفة لربهم منه. فإن المدد الطويلة تشتمل على الطاعات الكثيرة، كما تشتمل على المخالفات العديدة. وحكم الله على كل ذلك من المغيبات. فليعتبر المريد كل هذا حتى لا يزلّ.

ج ـ أدب النهاية:

إن كان الواصل شيخا، فالأمر متروك إليه في تقدير كيفية نفع مريديه بما يناسبه. فإن لكل شيخ طريقة خاصة به، تختلف عن غيره. هذا هو الأصل.

وإن لم يكن الواصل شيخا، فليعامل من هو أقل منه في المقام، بما تقتضيه الرحمة. وليكن لهم عونا في التوجه إلى شيخهم، ولا يظهر من نفسه أمامهم ما يفتنهم به. فإن لم يضمن حسن تحكمه في أموره، فليعتزل عنهم بنية عدم الإضرار بهم.

5. الأدب مع الأقران، وعامة المسلمين:

ا ـ أدب البداية:

على المريد أن يعامل أقرانه بالتعظيم. وليسعى في إيصال النفع إليهم بكل السبل، وليحتمل أذاهم وجهلهم عليه. وليكن مصلحا بينهم، معينا لهم في الطاعات، مذكرا لهم عند المخالفات. ولا تجعله مراعاة نسبتهم ينتصر لهم على حساب الحق. بل يكون قائما بالقسط ولو كان الخصم من ملة أخرى.

أما معاملته لسائر المسلمين، فتكون بمراعاة نسبتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فليجعلهم شفعاءه عنده، وليتخذهم وسائل إليه. فإن أحسنوا فليعنهم، وإن أساءوا، فليتغافل عنهم. ولينصح من توسم منه قبول النصح؛ وليدعُ لمن علم أنه لا يسمع

منه. ولا يذكر أمامهم أحوال أهل الله إن كان يعلم أنهم لا يطيقونها، أو ينكرون على أهلها. أما من يعلم منه حسن الاستعداد، فليتعاهده بالكلام عن أهل الله مرة فمرة؛ ترغيبا له في الطريق، عسى أن يكتب الله له أجر إبلاغ الدعوة. وليحسن الظن بكل المسلمين، وإن اختلفت مذاهبهم ومشاربهم. ولا يُلزمه هذا باعتقاد كل ما يعتقدون. فمقامه هنا لا يعطيه العلم الذي يعلم به وجه الحق عند كل واحد. وليحمل هم الأمة، وقيامها في وجه أعدائها بما يعطيه علمه ومكانته وقوته. ولا يجعل جماعته أو طريقة شيخه حجابا له عن الأمة، فإن ذلك من علامات النقص والتقصير.

ب ـ أدب الوسط:

على المريد هنا أن يتخذ إخوانه معينا له على سيره. فينافسهم في المجاهدات والطاعات والخدمة. فإن رأى من أخ له تقصيرا أو فترة، فليكن له عونا على الخير بالرفق وحسن الفهم. فإن الأحوال هنا لا ينفع فيها علم الظاهر وحده، بل تتطلب مراعاة القبض والبسط، والهيبة والأنس، وغير ذلك مما يعلمه المريدون بالذوق. فإن لم يعلم حال أخيه، فليكن تحت طلبه فيما يريده منه، ما لم يكن في مخالفة. وليكن خير وسيط بين إخوانه وشيخه. فلا يوصل إليه إلا ما

يحب سماعه من أحوالهم. وليستر عوراتهم عنده، ما لم يكن في ذلك خيانة.

أما عامة المسلمين، فينبغي أن تزداد محبتهم عنده بزيادة معرفته بقدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإن رأى أنهم لا يطيقون مجالسته، فليعذرهم ويعتزلهم من غير إغلاظ قول. فإن سألوه، فليبد لهم بعض حاله من الإدبار عن الدنيا والإقبال على الله. فإن ذلك كاف لإبعادهم عنه، إن لم يكونوا مؤهلين للاقتداء به.

ج ـ أدب النهاية:

الواصل تكون نظرته إلى أقرانه نظرة استبشار ورجاء، لأن حاله ذوق القرب والفناء عن القرب. فلا يقابلهم إلا بكل سرور، ولا يعدهم إلا بكل خير. فالموافق منهم، يراه ذا فضل عليه، فيكون شافعا له وفاديا؛ أما المخالف، فليسلم له حاله، وليمسك عنه رجله ولسانه. فإن التقى به، فلا ينقص عما تتطلبه الأخوة العامة من حسن المعاملة.

6. الأدب مع الكفار والمخالفين:

ا ـ أدب البداية:

على المريد أن يتجنب أهل الضلال في بدايته حتى لا تسري ظلمتهم إليه. وعليه أن يبصّرهم بحقيقتهم إن كان لا بد له من مخالطتهم في وقت ما، كأوقات العمل واللقاءات والمؤتمرات (إن

كان من أهلها)، ما استطاع. فإن ذلك من محبة الخير لهم، وعدم إقرارهم على ما يغضب الله. ولا يحقر منهم أحدا في باطنه، ولا يستهزئ بما هو عليه من عقائد فاسدة؛ حتى يكون منزَّها. فإن استطاع أن يوصل لهم الخير في دنياهم، فليفعل من غير أن يظهر منه خضوع لهم أو طمع فيهم. فإن رآهم مصرين على الباطل، فليحسن إليهم من غير أن يعلموا، إن استطاع. فإن ظُلم منهم أحد وكان يستطيع رفع الظلم عنه، فليفعل؛ وإن كان عنده حق لأحدهم فليعده معتذرا.

ب ـ أدب الوسط:

المتوسط، عليه أن يعتبر بحال أهل الضلال. وليجعلهم ذكرا له حتى يخاف تقلب قلبه في يد ربه، ويتأدب مع القضاء المبرم. ولينظر إليهم في باطنه نظر الرحمة، من غير أن يُخل بما يتطلبه الظاهر. ولا يحتقر أحدا وإن كان يعبد الأصنام. فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما احتقر أحدا قط. بل كان يدله على الحق بأفضل أسلوب. فإن قبل الحق فهو ذاك، وإن لم يقبل، أعرض عنه، تاركا حسابه إلى ربه. واعلم أن الله يغار على كل عباده، فإياك أن تظن أنه أهمل الكافر، وتركك تفعل معه ما تشاء! لو كان أهمله، ما كان يغضب منه ويعاقبه. فافهم ما ندلك عليه، ترشد إن شاء الله.

ج ـ أدب النهاية:

الواصل يرى مدد المهتدين والضالين معا من عند الله. ويعلم الأسماء المختصة بهؤلاء، وتلك المختصة بأولئك. ويعلم مآل هؤلاء إلى أي الأسماء، ومآل أولئك إلى أيها. فالأمر عنده تجلٍّ من الله وإليه. كل هذا مع المحافظة على الآداب التي دل عليها الشرع في الظاهر؛ وإلا كان نقصا في حقه.

7. متفرقات:

ا ـ الأدب في الدعاء:

يدعو المريد ربه عقب الأعمال المشروعة، وعقب الذكر، وعند النوازل. وعليه أن يكون حاضرا في دعائه، وليس كأولئك الذين يتفننون في السجع واجتلاب الأدعية المنمقة إرضاء للسامعين، وما علموا أن دعاءهم وبال عليهم. لذلك فليكن دعاءه من غير تصنّع، ولا تحسين. وليكن موافقا لحال قلبه. فإن وجد من قلبه انصرافا إلى معنى آخر، فليتوقف عن دعائه. وليكن معظما لربه، مستحضرا لغناه عنه سبحانه مع افتقاره إليه.

وقد يحصل المريد في مقام يرى الله مطلعا على كل أحواله، فينخرم عنده الدعاء. وقد يتوقف عن الدعاء جملة بسبب قوة يقينه

بنظر ربه. فمثل هذا يكون دعاؤه ترك الدعاء. ولا يقتدي به من ليس في نفس مقامه؛ لأن الاقتداء في الأذواق لا يصح.

أما في النهاية، فيكون الدعاء متضمنا للتصرف إن كان المرء من أهله. هذا في حق غيره، أما في حق نفسه، فيبقى له أدب الدعاء عبوديةً، وصونا للسّر أن يُباح.

ب ـ تعظيم رسول الله ثم الوارث:

اعلم أن التعظيم، يكون على قدر العلم. والعلم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بالوارث، هو بحسب مقام العالِم، لا بحسب حقيقة المعلوم. لذلك، وجب على المريد أن يستغفر الله من تعظيمه، لأنه حتما تنقيص من حيث الحقيقة. يفعل هذا دون أن يتخلى عن تعظيمه، حتى يكون تعظيمه مفيدا له في ترقيه.

أما التعظيم الحق، فلا يطيقه أحد ما دامت حقيقته مخالفة لحقيقة المعظَّم. هذا ما تعطيه الحقائق! فإياك أن تغتر بسوى ذلك. ومن هذا الباب قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: "إن استغفارنا، في حاجة إلى استغفار"؛ ومنه قيل: " صلاتنا أقرب إلى العقوبة منها إلى الثواب"؛ لما علموا أن مقام المستغفَر ومقام المصلَّى له، فوق علمهم.

فعلى المريد أن يعلم أن تعظيمه لشيخه، هو تنقيص من قدره من حيث لا يعلم. وليعلم أنه مهما بالغ في تعظيمه، فلن يوفيه حقه. وما

ينجيه إلا أن يعتقد في نفسه العجز التام، المستصحب مع الأنفاس. نقول هذا حتى ندل المريد على ما ينفعه، ويكون سببا في ترقيه. فإن اعتقاد التعظيم حجاب لا يشعر به كل أحد.

ج ـ أدب مراعاة الأصل:

من أدب المريد أثناء سيره في المقامات، أن يستصحب معه مقتضيات أصله. فأصله هو العدم، ومقتضياته هي السلوب. فعليه أن لا يغفل عن جهله وعجزه وفقره. فإن علم شيئا، فهو جهل في علم الله، وإن قدر على شيء، فهو عجز في قدرة الله، وإن استغنى بشيء فهو فقر في غنى الله. وليعلم أن الأصل غالب، مهما غطته الستور. والكامل من استقر في العدم واستراح، فإن ظهر عليه شيء من صفات الله، بقي عنها أجنبيا حفظا للأدب. ولو نظرت إلى حال الأنبياء عليهم السلام ـ مع كمال علمهم ومعرفتهم ـ كيف أنهم راسخون في جهلهم الأصلي مثلا، لعلمت ما ندلّك عليه. وانظر كيف أنهم من شدة رسوخهم ـ عليهم السلام ـ يكاد العامة، أن يروهم دونهم أحيانا، من شدة انحجابهم بأصلهم العدمي. وانظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسأل عن الأمر فيسكت حتى يأتيه الوحي. هذا هو أدب الكمّل الذي دل عليه الكامل الأكمل صلى الله عليه وآله وسلم. فإن قارنت حال أهل الله، بحال أهل العلم من

الفقهاء، تبين لك من هو على الصراط المستقيم منهما. فالعلماء ـ أصلحهم الله ـ يكادون يجيبون عن كل ما يُسألون، وإذا أجابوا يستفيضون في الجواب من غير إحاطة بالمسؤول عنه. فأهل الله بإظهار جهلهم، ينبئون عن علمهم، وأهل الفقه بإظهار علمهم، ينبئون عن جهلهم. هذه من الحقائق التي توجد في أضدادها. وهو من غريب العلم.

هذه أصول الآداب التي تلزم المريد بحسب مقامه، وبحسب المتأدَّب معه، على الإجمال، لا على التفصيل؛ لأن التفصيل يقتضي اعتبار المتغيرات الشخصية لكل سالك. ولا يكون ذلك إلا للشيخ الذي هو مشرف على تربية المريد. من هنا، نقول: إن الكتب لا تغني عن الشيخ، بل هي تسهّل مهمته، إن كان المريد حسن الفهم، يقظ القلب. أما أهل الله الذين قالوا بإغناء كتبهم عن الشيخ، فإنهم يخصون طبقة عليا من الاستعدادات التي هي قليلة في مجموع الأزمنة؛ أما في الزمن الواحد فنادرة. نقول هذا من حيث العموم، وإلا فإن الله قادر أن يجعل كل الناس على أفضل استعداد. وهو يفعل ما يشاء سبحانه. ولولا اقتضاء التربية للتنبيه إلى مكامن الضرر من الطريق، لسكتنا سكوتا تاما. أدبا مع ربنا.

الفصل الثاني عشر
الطريق اليوم

الطريق هو الطريق. لا يتغير ولا يتبدل. ولكننا نريد أن نبين حال من يدعي الانتساب إليه اليوم.

أولا: نكاد لا نسمع للسلوك ذكرا، في زماننا. فإن سمعنا، فبمفاهيم مغلوطة، ومعاني مخلوطة. ينسى أصحاب هذا الصنف، أن للسلوك علامات، ولمراحله ثمرات، ولغاياته دلالات. لا يمكن أن ندّعي السلوك، من غير أن نَعْرض أنفسنا على ميزانه، أو مع فرارنا من الإتيان بشروطه والوفاء بأحكامه. إن كان أصحاب الدنيا في شؤونهم لا يقبلون بمجاوزة منطق مجالاتهم، أفيكون أهل الله متلاعبين بأشرف مجال يُدَل عليه في الأرض أو في السماء؟! لا والله!

لا شك أن الضعف العام الذي تعاني منه أمتنا، قد أصاب من يزعم أنه من خواصها. أما الخواص فهم هم، في كل زمان. يحفظهم ربهم عناية منه بهم، ويحفظ بهم الطريق، حتى تبقى جلية أمام أنظار الطالبين. لكننا نتكلم عن الشائع بين الناس.

بَعُد بنا الزمان عن الزهاد وأهل الرياضات، واستحدثت فينا أمور لا يُعلم لها أصل أو فصل. استنبطها أهل فكر وهوى وأغراض. قد يكونون منا أحيانا، وأحيانا أخرى لا نعلم حقيقة انتمائهم.

أصبح الناس لا يعلمون من التصوف إلا كون المريد لا ينبغي أن يعترض على الشيخ. فتشيخ من شاء، وأرهب الناس حتى لا يقف أحد في وجه منكر، أو يتصدى لسد خَلة. فتسيس الطريق، تبعا لذلك عندما أصبحت السياسة مظهرا للأغراض العامة.

كانوا في زمن قريب يعيبون على الصوفية عدم اشتغالهم بالشأن العام، فوجدناهم اليوم، يرفعون راية التصوف وكأنها من رموز المؤسسات الدولية. وأصبح الحكام المحليون ـ بعد أن كانوا يتحرجون من التصوف وأهله ـ يرعون طرائق مختلفة ماديا ومعنويا.

قد يقول قائل: العودة إلى الحق، وإن تأخرت، فهي فضيلة. ينبغي أن نشكرها لأهلها. نقول: نعم! لكن، بشرط أن يبقى الطريق نقيا، يشرف عليه أئمة ربانيون؛ حتى يضمن من ينخرط فيه، أو ينتسب إليه، أن يُسار به نحو التزكية وتحقيق الكمال؛ لا أن يُصبح الطريق تحت تحكم السياسيين، أو تحت رعاية أطراف دولية، نعلم يقينا عداءها للأمة!

الطريق إلى الله، ما كانت ولن تكون إلا ربانية! أئمتها يدعون إلى الله بما شرع الله، وعلى نهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ في استقلال تام عن كل الأطراف التي تروم تحقيق غايات عاجلة، سياسية أو مالية، من ورائها.

هذا لا يمنع أصحاب الطريق، من أن يعملوا على تحقيق عودة الأمة إلى السبيل الأقوم، على صعيد المرتبة الأولى من الدين أولا. فيتعاونون مع الصادقين من العلماء والعاملين للإسلام، فيما فيه الخير العام. مع احتفاظهم بما يميّزهم من الدلالة على الله في المستويين الأعليين. فالتخصص لا يمنع الاشتراك في المشترك فيه. فكما الدين هو المراتب الثلاث، كذلك الأمة هي أهل المراتب الثلاث.

وإن كان أهل الطريق فيما مضى، قد امتازوا عن غيرهم بتخصصهم في الإسلاك، وكانوا في شبه عزلة، بسبب قيام علماء الشرع الأقدمين بما كان متوجبا عليهم من نصح للحكام والمحكومين؛ فإنهم اليوم مدعوّون إلى القيام بالعملين معا، بعد أن صار أغلب العلماء موظفين خاضعين لمدِّ وجزر السياسات الدنيوية، المحلية والعالمية.

وفي سبيل هذا، على المنصفين من العلماء، الانضمام إلى الحركة التربوية غير الرسمية العامة؛ من أجل الإسهام في عملية الإصلاح.

نؤكد على وجوب أن تكون الحركة غير رسمية، حتى تبقى عاملة لله لا لغيره. ومتى كان التدين رسميا، وهو علاقة بين العبد وربه؟!

ثم، في سبيل هذا، لا بد أن يعود أصحاب التبرك، الذين احتكروا النسبة إلى الطريق من غير وجه حق، وصاروا ناطقين رسميين باسمها زورا؛ أن يعودوا عما هم عليه من انحرافات لا تليق بأيٍّ منا.

من ذلك، أنهم صاروا يزعمون أنهم على نهج الأئمة الصادقين، رموزنا التارخيين، كالجنيد والجيلاني، والرفاعي، والشعراني، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. والواقع أنهم مخالفون لهم في كل شيء، إلا في بعض ميل و بعض تصديق. في الكلام باسم هؤلاء الأئمة اليوم، تضليل للأمة؛ إن لم نكن من طرازهم! وفيه ظلم لهم ـ رضي الله عنهم ـ لأننا ننزل بهم عن عُلوهم إلى حضيضنا؛ إن لم نكن نشاركهم مكانتهم.

ثم إن أهل التبرك اليوم، صاروا يستعْدون علماء الشرع، بما يروّجون له من مقولات محرفة، يجعلونها دليل خصوصيتهم عند أنفسهم. من ذلك قولهم للناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس ميّتا. يظنون أنهم بهذا معظمون له، وموقرون! كيف وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[137]؟! أفي تكذيب

[137] . الزمر: 30.

الله، تعظيم لرسول الله؟ لا والله! ألا يعلمون أنه من كفر بآية واحدة من القرآن، فهو كافر؟ ..أم أنهم سمعوا أو قرأوا كلاما لأئمة، كانوا يعلمون مواقعه ووجوهه ومتعلقاته، فأخذوه على ظاهره، ففُتنوا به وفَتنوا؟

كان ينبغي عليهم، أن يلزموا مكانتهم، ويُسلّموا لأئمة الطريق كلامهم على الوجه الذي قصدوه، من غير أن يتطفلوا عليهم، ويتأولوه. إن كنا نريد للأمة أن تعرف قدر الربانيين، فلنكن أول من يفعل ذلك! لكن لا عجب، في غياب التزكية والتهذيب!

ومن ذلك، تمسكهم الأعمى، بمظاهر موروثة، وكأنها من الفرائض والواجبات، كالرقص والسماع. فإن من لا يعلم حقيقة الأمر من العامة، يظن أنهم على ملة أخرى. فالواجب عندما يكون المرء مع غير المنخرطين في سلك التربية الخاصة، أن يراعي شروط المجالسة، والموافقة فيما هو مشترك بين المسلمين كافة. فإن التعصب للأمور الاجتهادية الخاصة، هو من أسباب التفرقة التي نعاني منها اليوم. وبالتعصب، يجعل المرء ممن يختلف معه خصما، كان يمكن أن تُكسب مودته. هذا الأمر يصح بالنسبة إلى كل طرف، ولكننا نتوجه إلى أهل التبرك من المتصوفة، لأنهم أقرب إلينا نسبا.

فواجب علينا نصحهم، وواجب عليهم سماعها، إن كنا نريد الخير لهذه الأمة.

وبين المنتحلين للصفة، والمغرضين، نريد أن يبقى الطريق واضحا نقيا، يستقبل المشتاقين إلى الله، في يسر ولين. غايته الله وحده، لا شريك له. لا يهمنا إن قل أهله أم كثروا. المهم أن يظل منزها عن رعوناتنا، عاليا عن تناول أهوائنا، متينا بأصالته النبوية، مستمرا بنسبته الحقّية.

خاتمة

من خلال هذا الكتاب، أردنا أن نُبيّن أصول التزكية، على هدي من القرآن والسنة؛ وبالنظر إلى نماذج من الصحابة والتابعين؛ لعلنا نتبيّن جميعا، أصالتها في ديننا، ومشروعيتها منه.

لقد تراكم على طريق التربية القلبية ـ عبر القرون ـ غبار كثيف من الاجتهادات الفرعية، المنصبغة بصبغة العصر والمَصر؛ أدى إلى شك جل المسلمين في أسس الطريق وأركانها، حتى عدّها بعضهم مما دخل على الأمة من شركيات الأمم الأخرى.

وبإهمال التزكية، ضعفت الأمة وبلغ ضعفها حدا لم يكن ليخطر على بال. ظن معه بعض من تأثر بأساليب الأمم الغربية، أن إعادة تأسيس الدين على الفكر قد يعود بها إلى قوتها، ويغنيها عن الالتزام بالغيبيات وتوابعها. نسوا أن الدين من وضع الله ورسوله، ونسوا أن ما يرومونه هو البدعة الحق. كيف نعيد صياغة الدين، مع ضمان أن يُنتج لنا ما أنتج للأولين، في نفس الآن؟!

ليس من الضروري أن يُفهم للدين منطق، حتى يُتّبع. وليس من الضروري أن يقبله غيرنا، حتى نتّبعه. السؤال المهم هو: هل نريد أن

نتقرب إلى الله، وننال رضاه؟ أم أن العبد مستغن في نفسه، غافل عن فقره الأصلي؟

من أجل التنبيه إلى بعض ما يعود بالعباد إلى سبيل الرشاد، تكلمنا على الخلفية المعرفية التي للأمور (الحقائق)، ونحن ندرك أنه ليس في مقدور كل أحد إدراك ما نقول. لكن، مرادنا أن يشعر من ليس من أهل الاختصاص، أن الدين عموما، والتزكية خصوصا، تنبني على أساس متين من الحق. إن كنا نجهله، أو لا نراه بوضوح، فهذا لا يُنقص من قدره شيئا. بل على العكس من ذلك، يجعلنا نبحث عن فهم صحيح له، يؤدي بنا ـ إن كنا نريد الحق ـ إلى تمسك متين به، يكون فيه بعض شبه بالأولين.

إن الحقيقة، التي شغلت الفلاسفة والمفكرين، وأعيتهم دروبها، قد جعل الله لنا إليها بالدين سبيلا. فهل نعرض عما لدينا، لمجرد أن "الآخرين" لم يُوفّقوا ولم يهتدوا إلى بابها؟!

إن من يعمل بهذا المنطق، كان عليه أن يفقأ عينيه، ما دام العُمي لا يرون نور الشمس في كبد السماء.. وكان عليه أن يبتر ساقيه ما دام العُرج لا يتمكنون من العدو في الميادين الفسيحة..

قالوا، بعد أن كلّوا من قرع الجدران، إذ لم يهتدوا إلى الباب: الحقيقة لا تُدرك! فصدقهم سفهاء الأحلام منا. وقالوا: الحقيقة نسبية،

كل واحد يراها كما يراها، ولا يلزم أن نتفق على تصور مشترك لها. فقعد ذوو العاهات القلبية منا، وأخلدوا إلى الأرض.

فهل يُلقون بالا، إذا قلنا نحن: إن ما عجز عنه الفلاسفة والمفكرون، القُدامى والمحدثون، قد منّ الله علينا بإدراكه، لما خضعنا لجلاله، واتبعنا الرسول الأمي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ارتضاه لنا إماما، وتتلمذنا لأساتذة خلصونا من أوهامنا وربونا، كما يربى الجنين في بطن أمه. هل يعاملوننا وأولئك بنفس المنطق، وعلى قدم المساواة؟..

فليجب كل واحد عن نفسه. وليعلم أن حظه من الحق، هو ما يقطع به لنفسه. وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

والصلاة والسلام على رحمة العالمين، إمام الهدى والقائد إلى الخير؛ وعلى آله وصحبه، خير من اهتدى واقتدى؛ وعلى كل عباد الله الصالحين، دائما وأبدا. والحمد لله رب العالمين.

فهرس

مقدمة.....5

الفصل الأول: التربية.....11

1. التربية الموافقة للفطرة.....14

2. التربية المخالفة.....38

الفصل الثاني: الإرادة.....45

1. المريد والمراد.....49

2. شروط الإرادة.....49

الفصل الثالث: لقاء الشيخ.....57

1. آداب الدخول على الشيخ.....57

2. حقيقة الشيخ.....60

3. شرط الشيخ.....64

4. الموانع عن الشيخ.....66

الفصل الرابع: أصول السلوك.....77

1. قصة موسى (ع) وفتاه.....77

2. خلاصات.....97

الفصل الخامس: الذكر.....107

1. أصناف الذكر.....108
2. حقيقة الذكر.....116
3. التوجه في الذكر.....118
الفصل السادس: الحميات.....121
1. الجوع.....121
2. السهر.....124
3. العزلة.....131
4. الصمت.....132
الفصل السابع: الواردات.....135
الفصل الثامن: المعرفة.....143
الفصل التاسع: التأويل.....155
الفصل العاشر: ولادة المريد واستكمال السير.....163
الفصل الحادي عشر: آداب المريد.....177
1. أدب المريد في نفسه.....177
2. الأدب مع الحق.....179
3. أدب المريد مع من سبقه.....184
4. أدبه مع المتخلفين.....186
5. أدبه مع الأقران.....188
6. الأدب مع المخالفين.....190

7. متفرقات.....192
الفصل الثاني عشر: الطريق اليوم.....197
خاتمة.....203
الفهرس.....207